

رَوَاعِيُ الْبَيْتِ

فِي نَفْسِي رَجُلٌ لَقِيتُ



محمود سالم أبو حذيفة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

روائع البيان في تفسير
آي القرآن

سورة مريم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُ بِهِ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ لَهُ، فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }

[آل عمران: ١٠٢].

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" [النساء: ١].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا" [الأحزاب: ٧٠، ٧١].



أما بعد :

فإني أشكر الله جل في علاه على توفيقه لي في هذا العمل الطيب المبارك , في جمع وترتيب كتاب روائع البيان في تفسير آي القرآن والذي يتضمن بين طيات صفحاته تفسير سورة مريم وقد قمت بجمع ما تيسر من كتب التفسير وذلك للعلماء القدامى والمعاصرين , وأسأل الله تبارك وتعالى أن يجزيهم عنا خير الجزاء وأن ينفع بهذا العمل وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم , وقد قمت بتنسيق هذا الكتاب عبارة عن دروس ليسهل على القارئ وعلى الخطباء والواعظين القاءها في محاضراتهم ودروسهم

وأسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن يجعل له القبول بين الناس وأن ينفع به كل من يقرأ فيه



بين يدي السورة الكريمة

هيا بنا لنرى ما في هذه السورة من جمال

انظروا إلى الأوصاف التي ذكرها الله في هذه السورة إذا أحب عبداً من عباده

الأمر الأول: الرحمة (ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا)

الأمر الثاني: الحنان (وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا)

الأمر الثالث: العطاء والهبة (وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا)

الأمر الرابع: الحفاوة (إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا)

الأمر الخامس: الود (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا)

الأمر السادس: البشرى في أولها وفي آخرها (في أولها: إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ،

وفي آخرها: فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ)

قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا آدَمُ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ

يَزِيدَ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ وَطِهَ وَالْأَنْبِيَاءِ: إِنَّهُمْ

مِنَ الْعِتَاقِ الْأُولَى، وَهِنَّ مِنْ تِلَادِي. انفرد البخاري بإخراجه والمراد منه ذكر ترتيب هذه

السورة في مصحف ابن مسعود كالمصاحف العثمانية، وقوله: "مِنَ الْعِتَاقِ الْأُولَى" أي:

مِنْ قَدِيمِ مَا نَزَلَ، وَقَوْلُهُ: "وَهِنَّ مِنْ تِلَادِي" أي: مِنْ قَدِيمِ مَا قَنَيْتُ وَحَفِظْتُ (١)

(١) ابن كثير

وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير

اسْمُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي الْمَصَاحِفِ وَكُتِبَ التَّفْسِيرُ وَأَكْثَرُ كُتُبِ السُّنَّةِ سُورَةُ مَرْيَمَ. وَرُوِيَتْ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَالدَّيْلَمِيُّ، وَابْنُ مَنْدَه، وَأَبُو نُعَيْمٍ، وَأَبُو أَحْمَدَ الْحَاكِمُ: عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ الْعَسَانِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَبِي مَرْيَمَ قَالَ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ وُلِدَتْ لِي اللَّيْلَةَ جَارِيَةٌ، فَقَالَ: وَاللَّيْلَةَ أَنْزَلْتَ عَلَيَّ سُورَةَ مَرْيَمَ فَسَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ»

وَهِيَ السُّورَةُ الرَّابِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ فِي تَرْتِيبِ النُّزُولِ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ فَاطِرٍ وَقَبْلَ سُورَةِ طه.

وَوَجْهُ التَّسْمِيَةِ أَنَّهَا بُسِطَتْ فِيهَا قِصَّةُ مَرْيَمَ وَابْنِهَا وَأَهْلِهَا قَبْلَ أَنْ تُفْصَلَ فِي غَيْرِهَا.

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ.

قال الإمام السيوطي في كتاب أسرار ترتيب القرآن ظهر لي في وجه مناسبتها لما قبلها: أن سورة الكهف اشتملت على عدة أعاجيب: قصة أصحاب الكهف، وطول لبثهم هذه المدة الطويلة بلا أكل ولا شرب، وقصة موسى مع الخضر، وما فيها من الخارقات، وقصة ذي القرنين، وهذه السورة فيها أعجوبتان: قصة ولادة يحيى بن زكريا، وقصة ولادة عيسى، فناسب تتاليهما.

وقد قيل أيضاً: إنهم من قوم عيسى، وإن قصتهم كانت في الفترة، فناسب توالي [سورة] قصتهم و [سورة] قصة نبيهم



الدرس الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤)

{كهيعص (١)}

قال ابن عاشور: حُرُوفٌ هَجَاءٍ مَرْسُومَةٌ بِمُسَمِّيَاتِهَا وَمَقْرُوءَةٌ بِأَسْمَائِهَا فَكَأَنَّهَا كُتِبَتْ لِمَنْ يَتَهَجَّأُهَا^(١)

لذلك نقول: لا بُدَّ في تعلُّم القرآن من السماع، وإلَّا فكيف تُفَرِّق بين الم في أول البقرة فتنتطقها مُقَطَّعة وبين "أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ" فتنتطقها موصولة؟ وصدق الله تعالى حين قال: {فَإِذَا قَرَأْتَ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} (٢)

{ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢)}

تأمل في قوله تعالى: ذكر رحمت ربك عبده زكريا، ولم يقل ذكر رحمت ربك زكريا

ليبين أن أعلى وأسمى المنازل منزلة العبودية، فكلما ازدادت العبودية لله تنزلت رحمات الله

وقال الإمام السعدي: سنقصه عليك، ونفصله تفصيلا يعرف به حالة نبيه زكريا، وآثاره الصالحة، ومناقبه الجميلة، فإن في قصها عبرة للمعتبرين، وأسوة للمقتدين، ولأن في تفصيل رحمته لأوليائه، وبأي: سبب حصلت

(١) التحرير والتنوير

(٢) الشعراوي

لهم، مما يدعو إلى محبة الله تعالى، والإكثار من ذكره ومعرفته، والسبب الموصل إليه. وذلك أن الله تعالى اجتبى واصطفى زكريا عليه السلام لرسالته، وخصه بوحيه، فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين، ودعا العباد إلى ربه، وعلمهم ما علمه الله، ونصح لهم في حياته وبعد مماته، كماخوانه من المرسلين ومن اتبعهم، فلما رأى من نفسه الضعف، وخاف أن يموت، ولم يكن أحد ينوب منابه (أي مكانه) في دعوة الخلق إلى ربهم والنصح لهم، شكوا إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن^(١)

{إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)} لماذا نداءً خفياً , لماذا أخفى النداء؟

قال الرازي : أَخْفَاهُ لِئَلَّا يُلَامَ عَلَى طَلَبِ الْوَالِدِ فِي زَمَانِ الشَّيْخُوخَةِ.

وقيل خَفِيَ صَوْتُهُ لِضَعْفِهِ وَهَرَمِهِ كَمَا جَاءَ فِي صِفَةِ الشَّيْخِ صَوْتُهُ خُفَاتٌ وَسَمْعُهُ تَارَاتٌ، فَإِنْ قِيلَ مِنْ شَرْطِ النَّدَاءِ الْجَهْرُ فَكَيْفَ الْجَمْعُ بَيْنَ كَوْنِهِ نِدَاءً وَخَفِيًّا، وَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ أَتَى بِأَفْصَى مَا قَدَرَ عَلَيْهِ مِنْ رَفْعِ الصَّوْتِ إِلَّا أَنَّ الصَّوْتِ كَانَ ضَعِيفًا لِنَهَايَةِ الضَّعْفِ بِسَبَبِ الْكِبَرِ فَكَانَ نِدَاءً نَظَرًا إِلَى قَسْدِهِ وَخَفِيًّا نَظَرًا إِلَى الْوَاقِعِ. الثَّانِي: أَنَّهُ دَعَا فِي الصَّلَاةِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَجَابَهُ فِي الصَّلَاةِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى [آلِ عِمْرَانَ: ٣٩] فَكَوْنُ الْإِجَابَةِ فِي الصَّلَاةِ يَدُلُّ عَلَى كَوْنِ الدُّعَاءِ فِي الصَّلَاةِ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ النَّدَاءُ فِيهَا خَفِيًّا^(٢)

وقال الشنقيطي : وَالْأَظْهَرُ أَنَّ السِّرَّ فِي إِخْفَائِهِ هُوَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ كَوْنِ الْإِخْفَاءِ أَفْضَلَ مِنَ الْإِعْلَانِ فِي الدُّعَاءِ^(٣)

(١) تفسير السعدي

(٢) مفاتيح الغيب

(٣) أضواء البيان

من روائع ابن تيمية

وَفِي إِخْفَاءِ الدُّعَاءِ فَوَائِدٌ عَدِيدَةٌ: " **أَحَدُهَا** " أَنَّهُ أَعْظَمُ إِيْمَانًا؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ الدُّعَاءَ الْخَفِيَّ. وَ " **ثَانِيهَا** " أَنَّهُ أَعْظَمُ فِي الْأَدَبِ وَالتَّعْظِيمِ لِأَنَّ الْمُلُوكَ لَا تُرْفَعُ الْأَصْوَاتُ عِنْدَهُمْ وَمَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ لَدَيْهِمْ مَقْتُوهُ وَبِاللَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فَإِذَا كَانَ يَسْمَعُ الدُّعَاءَ الْخَفِيَّ فَلَا يَلِيْقُ بِالْأَدَبِ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَّا حَفْضُ الصَّوْتِ بِهِ. وَ " **ثَالِثُهَا** " أَنَّهُ أَبْلَغُ فِي التَّضَرُّعِ وَالْحُشُوعِ الَّذِي هُوَ رُوحُ الدُّعَاءِ وَلُبُّهُ وَمَقْصُودُهُ. فَإِنَّ الْخَاشِعَ الدَّلِيلَ إِنَّمَا يَسْأَلُ مَسْأَلَةَ مَسْكِينٍ دَلِيلٍ قَدْ انْكَسَرَ قَلْبُهُ. وَذَلَّتْ جَوَارِحُهُ وَخَشَعَ صَوْتُهُ؛ حَتَّى أَنَّهُ لِيَكَادُ تَبْلُغُ ذَلَّتُهُ وَسَكِينَتُهُ وَضَرَاةَتُهُ إِلَى أَنْ يَنْكَسِرَ لِسَانُهُ فَلَا يُطَاوِعُهُ بِالنُّطْقِ. وَقَلْبُهُ يَسْأَلُ طَالِبًا مُبْتَهَلًا وَلِسَانُهُ لَشِدَّةِ ذَلَّتِهِ سَاكِتًا وَهَذِهِ الْحَالُ لَا تَأْتِي مَعَ رَفْعِ الصَّوْتِ بِالدُّعَاءِ أَصْلًا. وَ " **رَابِعُهَا** " أَنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْإِحْلَاصِ. وَ " **خَامِسُهَا** " أَنَّهُ أَبْلَغُ فِي جَمْعِيَّةِ الْقَلْبِ عَلَى الدَّلَّةِ فِي الدُّعَاءِ فَإِنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ يَفْرُقُهُ فَكُلَّمَا حَفْضَ صَوْتَهُ كَانَ أَبْلَغَ فِي تَجْرِيدِ هِمَّتِهِ وَقَصْدِهِ لِلْمَدْعُوِّ سُبْحَانَهُ. وَ " **سَادِسُهَا** " - وَهُوَ مِنْ التُّكْتِ الْبَدِيعَةِ جِدًّا - أَنَّهُ دَالٌّ عَلَى قُرْبِ صَاحِبِهِ لِلْقُرْبِ لَا مَسْأَلَةَ نِدَاءِ الْبَعِيدِ لِلْبَعِيدِ؛ وَلِهَذَا أَنْتَى اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ زَكَرِيَّا بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا}

فَلَمَّا اسْتَحْضَرَ الْقَلْبُ قُرْبَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ قَرِيبٍ أَخْفَى دُعَاءَهُ مَا أَمْكَنَهُ. وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَعْنَى بِعَيْنِهِ بِقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: {لَمَّا رَفَعَ الصَّحَابَةُ أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ وَهُمْ مَعَهُ فِي السَّفَرِ فَقَالَ: أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ} .

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}

و " سَابِعُهَا " أَنَّهُ أَدْعَى إِلَى دَوَامِ الطَّلَبِ وَالسُّؤَالِ فَإِنَّ اللِّسَانَ لَا يَمَلُّ وَالجَوَارِحَ لَا تَتَعَبُ بِخِلَافِ مَا إِذَا رَفَعَ صَوْتَهُ فَإِنَّهُ قَدْ يَمَلُّ اللِّسَانَ وَتَضَعُفُ قُوَاهُ. وَهَذَا نَظِيرٌ مَنْ يَقْرَأُ وَيُكْرِّرُ فَإِذَا رَفَعَ صَوْتَهُ فَإِنَّهُ لَا يَطُولُ لَهُ؛ بِخِلَافِ مَنْ حَفِظَ صَوْتَهُ. و " ثَامِنُهَا " أَنَّ إِخْفَاءَ الدُّعَاءِ أَبْعَدُ لَهُ مِنَ الْقَوَاطِعِ وَالْمُشْوِشَاتِ؛ فَإِنَّ الدَّاعِيَ إِذَا أَحْفَى دُعَاءَهُ لَمْ يَدْرِ بِهِ أَحَدٌ فَلَا يَحْصُلُ عَلَى هَذَا تَشْوِيشٍ وَلَا غَيْرُهُ وَإِذَا جَهَرَ بِهِ فَرَطَّتْ لَهُ الْأَرْوَاحُ الْبَشَرِيَّةُ وَلَا بُدَّ وَمَانَعَتْهُ وَعَارَضَتْهُ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ تَعَلَّقَهَا بِهِ يُفْرَغُ عَلَيْهِ هِمَّتَهُ؛ فَيَضَعُفُ أَثَرُ الدُّعَاءِ وَمَنْ لَهُ تَجْرِبَةٌ يَعْرِفُ هَذَا فَإِذَا أَسَرَ الدُّعَاءَ أَمِنْ هَذِهِ الْمَفْسَدَةِ. و " تَاسِعُهَا " أَنَّ أَعْظَمَ النِّعْمَةِ الْإِقْبَالَ وَالتَّعَبُّدُ وَلِكُلِّ نِعْمَةٍ حَاسِدٌ عَلَى قَدْرِهَا دَقَّتْ أَوْ جَلَّتْ وَلَا نِعْمَةَ أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ فَإِنَّ أَنْفُسَ الْحَاسِدِينَ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَا وَلَيْسَ لِلْمَحْسُودِ أَسْلَمٌ مِنْ إِخْفَاءِ نِعْمَتِهِ عَنِ الْحَاسِدِ. وَقَدْ قَالَ يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ {لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا} الْآيَةُ. وَكَمْ مِنْ صَاحِبِ قَلْبٍ وَجَمْعِيَّةٍ وَحَالٍ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ تَحَدَّثَ بِهَا وَأَخْبَرَ بِهَا فَسَلَبَهُ إِيَّاهَا الْأَغْيَارُ؛ وَلِهَذَا يُوصِي الْعَارِفُونَ وَالشُّيُوخُ بِحِفْظِ السِّرِّ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ (١)

(١) مجموع الفتاوى الجزء ١٥

{ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ
بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) }

رق عظمي، والعظم هو المكون الأساسي للجسد، فإذا وهن العظم
وضعف، فمعنى ذلك أن الجسد كله يضعف

وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْعَظْمَ لِأَنَّهُ عَمُودُ الْبَدَنِ، وَبِهِ قِوَامُهُ، وَهُوَ أَصْلُ بِنَائِهِ، فَإِذَا وَهَنَ
تَدَاعَى وَتَسَاقَطَ سَائِرُ قُوَّتِهِ، وَلِأَنَّهُ أَشَدُّ مَا فِيهِ وَأَصْلَبُهُ، فَإِذَا وَهَنَ كَانَ مَا
وراءه أوهن منه. (١)

وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا والمراد باشتعال الرأس شيباً: انتشار بياض الشيب
فيه.

شَبَّ الشَّيْبُ بِشَوَاطِئِ النَّارِ فِي بَيَاضِهِ وَإِنَارَتِهِ وَانْتِشَارِهِ فِي الشَّعْرِ وَفُشُوهُ فِيهِ
وَأَخَذَهُ كُلَّ مَا خَذِ كَاشْتَعَلَ النَّارَ (٢)

قال ابن كثير: وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا الإِخْبَارُ عَنِ الضَّعْفِ
وَالكِبَرِ وَدَلَالِيهِ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ

وَقَوْلُهُ: { وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا } أَي: وَلَمْ أَعْهَدْ مِنْكَ إِلَّا الإِجَابَةَ فِي
الدُّعَاءِ، وَلَمْ تَرُدَّنِي قَطُّ فِيمَا سَأَلْتُكَ (٣)

(١) تفسير القرطبي

(٢) الرازي

(٣) ابن كثير

وقفات تدبريه

رَحْمَتِ رَبِّكَ: ولم يقل الله، فقال رحمة ربك والكاف للمخاطب
فرب زكريا هو ربك يا محمد ورب كل من سلك طريق العبودية

: يستحب للداعي أن يذكر في مقدمة الدعاء عجز النفس وضعفها

ذكر (رحمت) ربك (عبده) زكريا

في صحيح مسلم كان زكريا نجارًا. ليس مهما ما مهنتك أو منصبك أو
نسبك أو مستواك رحمة الله تصلك بقدر عبوديتك لربك

: سمى الله دعاء زكريا نداء مع أنه خفي ليبين أن السر عند الله علانية

: توصل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله،

لأنه يدل على التبري من الحول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته

ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَّا وَاَفْتَتَحْتَ قِصَّةَ مَرْيَمَ وَعِيسَى بِمَا يَتَّصِلُ بِهَا
من شؤون آل بيت مريم وكافلها لأن في تلك الأحوال كلها تذكيرًا برحمة
الله تعالى وكرامته لأوليائه. وكان الله ذكر قصة زكريا كمقدمة لذكر
صاحبة السورة وهي السيدة مريم (ابن عاشور)

إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا إخفاء الدعاء يدل على أن صاحبه قريب من الله،
وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله بخفض (ابن القيم).

نِدَاءً خَفِيًّا: أخفى تضرعه ونداءه فصدحت به المحاريب وبقي النداء خالداً
لا تحتاج لرفع صوتك أثناء الدعاء! فهمة صادقة كافية لفتح باب السماء.



{قال رب} بحذف أداة النداء للدلالة على غاية القرب (الإمام البقاعي)

[قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً] إنكسارك لله هو عزك الحقيقي، وافتقارك إليه هو الغنى وانطراحك بين يديه هو القوة

وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا : الشيب دليل الضعف والكبر ورسول الموت ونذيره

وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا اعترافك بإجابته لدعواتك بالأمس.. باب لإجابته لدعوات اليوم



الدرس الثاني

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ
لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)
يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧)

جاء في أضواء البيان أن المولى في لغة العرب: يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ مَنْ انْعَقَدَ
بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ سَبَبٌ يُؤَالِيكَ وَتَوَالِيهِ بِهِ، وَكَثِيرًا مَا يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى ابْنِ الْعَمِّ
{وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي} كان مواليه- وهم عصبته إخوته وبنو
عمه- شرار بنو إسرائيل، فخافهم على الدين أن يغيروه ويبدلوه، وأن لا
يحسنوا الخلافة على أمته، فطلب عقبا من صلبه صالحا يقتدى به في إحياء
الدين^(١)

وَجُمْلَةٌ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةٍ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ
شَيْبًا، أَي قَارَبْتُ الْوَفَاةَ وَخِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ بَعْدِي^(٢)

{وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي} أي: وإنني خفت من يتولى على بني
إسرائيل من بعد موتي، أن لا يقوموا بدينك حق القيام، ولا يدعوا عبادك
إليك، وظاهر هذا، أنه لم ير فيهم أحدا فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه
شفقة زكريا عليه السلام ونصحه

{ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا } فدعا الله أن يرزقه ولدا،
يقوم بالدين من بعده، واشتكى أن امرأته عاقرة، أي ليست تلد أصلا^(٣)

(١) الكشاف للزمخشري

(٢) التحرير والتنوير

(٣) السعدي

{يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)}

ومعنى يَرِثُنِي أي: إرث علم ونبوة، ودعوة إلى الله والقيام بدينه، لا إرث مال، ويدل لذلك أمران:

أحدهما قوله: وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ومعلوم أن آل يعقوب انقضوا من زمان، فلا يورث عنهم إلا العلم والنبوة والدين.

والأمر الثاني ما جاء من الأدلة أن الأنبياء- صلوات الله وسلامه عليهم- لا يورث عنهم المال، وإنما يورث عنهم العلم والدين، فمن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبي بكر الصديق أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة»^(١)

وَقَوْلُهُ: {وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا} أَي مَرْضِيًّا عِنْدَكَ وَعِنْدَ خَلْقِكَ، تُحِبُّهُ وَتُحِبُّهُ إِلَى خَلْقِكَ فِي دِينِهِ وَخُلُقِهِ^(٢)

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧)
يبين الله تعالى أنه قد أجاب بفضله وكرمه عبده زكريا , إنا نبشرك بإجابة دعائك قد وهبنا لك غلاماً اسمه يحيي

وهنا جاءت البشارة من الله جل وعلا وفي موضع آخر قال تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب، فكيف يكون هذا ؟

قال الإمام الرازي : يُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ حَصَلَ النَّدَاءُ نِدَاءً لِلَّهِ وَنِدَاءً الْمَلَائِكَةِ^(٣)

"لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا" أَي لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مَنْ يُؤَافِقُهُ فِي هَذَا الْإِسْمِ مِنْ قَبْلُ وَجُودِهِ.

(١) التفسير الوسيط

(٢) ابن كثير

(٣) مفاتيح الغيب



وقفات تدبرية

وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وهن العظم واشتعل الرأس شيباً وزوجة عاقر. ثم قال ولم أكن بدعائك رب شقياً.. رغم كل الأبواب المغلقة لم ينقطع الأمل (تأملات قرآنية)

إذا سُدَّتْ كل المنافذ فعلق رجاءك بالله ولا تقس رغباتك بقدراتك أنت، وإنما قسها بقدرة الله

"فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا" سل الله تعالى أن يرزقك الذرية الصالحة وأن يجعل ذريتك من أولياء الله

يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ مع كثرة أسباب الموانع دعا أن يرزقه الله بذرية تحمل النبوة، ما أجمل الثقة في الله..
عندما تكون حاجتك موصولة بمصالح آخرتك تكون أقرب لإجابة دعواتك

وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا أمنية الأنبياء أن يكونوا أبناءهم مرضيين في أقوالهم وأفعالهم

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ما أجمل عطاء الله عندما تمد يدك له وأنت تعلم أن الأمر أقرب للمستحيل. لكن الكريم لم يخيب ظنك ..



الدرس الثالث

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ
الْكِبَرِ عِتْيًا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ
وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ
ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠)

لَمْ تَعَجَّبَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ مَعَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي
طَلَبَ الْغُلَامَ؟

والجواب على ذلك: أنه سأل عن الصفة والكيفية التي سيأتيه الولد عليها ,
هل سأرجع شاباً يارب ؟ وهل سترجع امرأتي فتاة وتكون محلاً للإنجاب ؟
أم أنني سأرزق الولد وأنا على هذه الصفة وزوجتي على تلك الحال ؟
وقيل : أنه إنما سأل ليعاد ذكر البشارة على مسمعه , فالشخص إذا أتاه
خبرٌ سار أحب أن يتكرر على سمعه هذا الخبر (١)

وقال الشنقيطي: أَنَّ اسْتِفْهَامَ زَكَرِيَّا اسْتِفْهَامَ اسْتِحْبَارٍ وَاسْتِعْلَامٍ ; لِأَنَّهُ لَا
يَعْلَمُ هَلِ اللَّهُ يَأْتِيهِ بِالْوَلَدِ مِنْ زَوْجَةِ الْعَجُوزِ عَلَى كِبَرِ سِنِّيهِمَا عَلَى سَبِيلِ
حَرْقِ الْعَادَةِ، أَوْ يَأْمُرُهُ بِأَنْ يَنْزَوِّجَ شَابَةً، أَوْ يَرُدُّهُمَا شَابَتَيْنِ؟ فَاسْتَفْهَمَ عَنِ
الْحَقِيقَةِ لِيَعْلَمَهَا، وَلَا إِشْكَالَ فِي هَذَا، وَهُوَ أَظْهَرُهَا (٢)

وكما حدث في قصة إبراهيم عليه السلام لما قال لربه: { رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ
تُحْيِي الْمَوْتَى } وأبو الأنبياء لا يشك في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى،
ولكنه يريد أن يعرف هذه الطريقة العجيبة، فالكلام ليس في الحقيقة وجوداً

(١) التسهيل لتأويل التنزيل (مصطفى العدوي)
(٢) أضواء البيان

وعدماً، إنما في كيفية وجود الحقيقة، والكلام في كيفية لا دخل له بالوجود فأخبره الحق سبحانه أن هذه المسألة لا تُقال إنما تُبأشَرُ عملياً، فأمره بما نعلم من هذه القصة: وهو أن يحضر أربعة من الطير بنفسه، ثم يضمن إليه ليتأكد بنفسه من حقيقتها، ثم أمره أن يُقَطِّعَهن أجزاء، ثم يُفَرِّقَ هذه الأجزاء على قمم الجبال، ثم بعد ذلك ترك له الخالق سبحانه أن يدعوهن بنفسه (١)

وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَجُمْلَةُ امْرَأَتِي عَاقِرًا حَالٌ مِنْ يَأِ التَّكْلُمِ. وَكُرِّرَ ذَلِكَ مَعَ قَوْلِهِ فِي دُعَائِهِ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا. وَهُوَ يَفْتَضِي أَنَّ زَكَرِيَّا كَانَ يَظُنُّ أَنَّ عَدَمَ الْوَلَادَةِ بِسَبَبِ عُقْرِ امْرَأَتِهِ (٢)

وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا : وَمَعْنَى قَوْلِهِ: وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، أَنَّهُ بَلَغَ غَايَةَ الْكِبَرِ فِي السِّنِّ، حَتَّى نُجِلَّ عَظْمُهُ وَيَبَسَّ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: يَقُولُ وَقَدْ عَتَوْتُ مِنَ الْكِبَرِ فَصِرْتُ نَحِيلَ الْعِظَامِ يَابِسَتَهَا، يُقَالُ مِنْهُ لِلْعُودِ الْيَابِسِ: عُودٌ عَاتٍ وَعَاسٍ (٣)

قول زكريا عليه السلام، فيما يحكيه الله عنه: وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا فِيهِ الْبِدَاءُ هَاهُنَا بِذِكْرِ حَالِ امْرَأَتِهِ عَلَى عَكْسِ قَوْلِهِ الَّذِي حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُ فِي سُورَةِ (آلِ عِمْرَانَ)؛ حَيْثُ قَالَ: رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ (آلِ عِمْرَانَ)؛ وَلَعَلَّ ذَلِكَ لِأَنَّهُ قَدْ ذُكِرَ حَالُهُ فِي تَضَاعِيفِ دُعَائِهِ فِي (آلِ عِمْرَانَ)، وَإِنَّمَا الْمَذْكُورُ هَاهُنَا بُلُوغُهُ

(١) تفسير الشعراوي

(٢) التحرير والتنوير

(٣) أضواء البيان

أقصى مراتب الكبر تتمّة لما ذُكرَ قبْلُ، وأمّا هنالك فلم يسبق في الدُعاءِ
ذِكْرُ حالِه؛ فلذلك قدّمه على ذِكْرِ حالِ امرأته (١)

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيَّ هَيْنٌ وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا
(٩)

يقول تعالى ذكره: قال الله لذكرى مجيباً له (قَالَ كَذَلِكَ) يقول: هكذا الأمر
كما تقول من أنّ امرأتك عاقرة، وإنك قد بلغت من الكبر العتيّ، ولكن ربك
يقول: خلق ما بشرتك به من الغلام الذي ذكرت لك أن اسمه يحيى عليّ
هين

وقوله (وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) يقول تعالى ذكره وليس خلق ما
وعدتك أن أهبه لك من الغلام الذي ذكرت لك أمره منك مع كبر سنك،
وعقم زوجتك بأعجب من خلقك، فإني قد خلقتك، فأنشأتك بشراً سوياً من
قبل خلقي ما بشرتك بأني واهب لك من الولد، ولم تك شيئاً، فكذلك أخلق
لك الولد الذي بشرتك به من زوجتك العاقرة، مع عتيك ووهن عظامك،
واشتعال شيب رأسك (٢)

(١) الدرر السنية
(٢) الطبري



قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا
(١٠)

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً، دَلَالَةٌ عَلَى حَمْلِ امْرَأَتِي، قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ
ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا، أَي صَحِيحًا سَلِيمًا مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ وَلَا حَرَسٍ.
قَالَ مُجَاهِدٌ: أَي لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْكَلَامِ مَرَضٌ..
وَفِي الْقِصَّةِ: أَنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ فِيهَا أَنْ يَتَكَلَّمَ مَعَ النَّاسِ فَإِذَا أَرَادَ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى
انطلق لسانه^(١)

قال الزمخشري: دل ذكر الليالي هنا، والأيام في آل عمران، على أن
المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن^(٢)
قال الإمام الرازي: اختلفوا في معنى سَوِيًّا فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ صِفَةٌ لِلَّيَالِي
الثَلَاثِ وَقَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ هُوَ صِفَةٌ لِزَكَرِيَّا وَالْمَعْنَى: آيَتُكَ أَنْ لَا تُكَلِّمَ
النَّاسَ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ مَعَ كَوْنِكَ سَوِيًّا لَمْ يَحْدِثْ بِكَ مَرَضٌ^(٣)

قال السعدي: وأما التسبيح والتهليل، والذكر ونحوه، فغير ممنوع منه،
ولهذا قال في الآية الأخرى: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}
فاطمأن قلبه، واستبشر بهذه البشارة العظيمة، وامثل لأمر الله له بالشكر
بعبادته وذكره، فعكف في محرابه^(٤)

(١) البغوي
(٢) الكشاف
(٣) مفاتيح الغيب
(٤) تفسير السعدي

وقفات تدبرية

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ : بعض العطاءات الربانية تَبْلُغُ في

إدهاشها وإبهارها حدًّا.. تنسى معه أنك أنت من دعوت بها

: مع قدرة الله دع عنك المستحيل والغير ممكن وسلم بأن الله على كل شيء قدير

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ : رسالة إلى كل عقيم أمرك صعب جداً على أطباء الدنيا ولكنه على رب الأطباء هين .

: اختصر الله جوابه على حاجات زكريا من ولد وصحة . بقوله **هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ** ليعلم ونعلم أن الله لا راد لفضله ولا ممسك لرحمته

: اجمع كل ما تراه صعباً ومستحيلاً وضعه مقابل هذه الآية **هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ**

: يا من أرهفته هموم الحياة ... **هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ**

يا من لم يرزقه الله بالذرية **هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ**

يا من استصعبت الشدائد وغابت عنك الأسباب ... **هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ**

إن أحرق قلبك جمرة اليأس أطفئ لهيبتها بـ **هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ**

قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا : إن منعه من الكلام مدة ثلاثة

أيام، وعجزه عنه من غير خرس ولا آفة، بل كان سويًا، لا نقص فيه، من

الأدلة على قدرة الله الخارقة للعوائد



الدرس الرابع

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا
(١١) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِنْ
لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا
(١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)

والمحراب: بيتٌ أو مُخْتَجِرٌ يُخَصَّصُ لِلْعِبَادَةِ الْخَاصَّةِ (١)

في سورة آل عمران قال تعالى: **وَأذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ** ,
وهنا قال **فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا** " فلماذا أمر قومه
بالتسبيح والذكر مع أنه هو الذي بشر بالولد؟ والجواب على هذا السؤال ما
ذكره الإمام السعدي رحمه الله: فأوحى إليهم، أي: بالإشارة والرمز {أَنْ سَبِّحُوا
بُكْرَةً وَعَشِيًّا} لأن البشارة بـ " يحيى " في حق الجميع، مصلحة دينية (٢)
قَالَ مُجَاهِدٌ: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ} أَي: أَسَارَ. وَبِهِ قَالَ وَهَبٌ، وَقَتَادَةُ.
وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي رَوَايَةٍ عَنْهُ: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ} أَي: كَتَبَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ (٣)
أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا أَنْ سَبِّحُوا اللَّهَ أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ، فَالْبُكْرَةُ أَوَّلُ
النَّهَارِ، وَالْعَشِيُّ آخِرُهُ (٤)

(١) التحرير والتنوير

(٢) تفسير السعدي

(٣) ابن كثير

(٤) أضواء البيان

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ) فِي الْكَلَامِ حَذْفٌ، الْمَعْنَى فَوَلِدَ لَهُ وَوَلَدٌ وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَوْلُودِ: "يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ". وَهَذَا اخْتِصَارٌ يَدُلُّ الْكَلَامَ عَلَيْهِ. وَ"الكتاب" التَّوْرَةُ بِلاَ خِلاَفٍ. "بِقُوَّةٍ" أَي بِجِدِّ وَاجْتِهَادٍ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَقِيلَ الْعِلْمُ بِهِ، وَالْحِفْظُ لَهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، وَهُوَ الْإِتِّزَامُ لِأَوَامِرِهِ، وَالْكَفُّ عَنِ نَوَاهِيهِ^(١)

وَالْبَاءُ لِلْمُلَابَسَةِ، أَي أَخْذًا مُلَابِسًا لِلثَّبَاتِ عَلَى الْكِتَابِ، أَي عَلَى الْعَمَلِ بِهِ وَحَمَلِ الْأُمَّةِ عَلَى اتِّبَاعِهِ^(٢)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، سَأَلْتُهُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} ، قَالَ: بَلَعْنَا " أَنَّ الصَّبِيَّانَ قَالُوا لِيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا: اذْهَبْ بِنَا نَلْعَبْ، قَالَ: مَا لِلْعِبِّ خُلْفَتْ " ^(٣)

وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ يَحْتَلِمَ فَهُوَ مِمَّنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ صَبِيًّا»^(٤)

{وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} أَي: الْفَهْمَ وَالْعِلْمَ وَالْجِدَّ وَالْعَزْمَ، وَالْإِقْبَالَ عَلَى الْخَيْرِ، وَالْإِكْبَابَ عَلَيْهِ، وَالْاجْتِهَادَ فِيهِ^(٥)

(١) القرطبي
(٢) التحرير والتنوير
(٣) الزهد والرفائق لابن المبارك
(٤) زاد المسير
(٥) ابن كثير

وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣)

قَالَ جُمُهورُ الْمُفَسِّرِينَ: الْحَنَانُ: الرَّحْمَةُ وَالشَّفَقَةُ وَالْعَطْفُ وَالْمَحَبَّةُ

وَمَعْنَى مِنْ لَدُنَّا مِنْ جَانِبِنَا، قِيلَ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى أَعْطَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ لَدُنَّا كَانَتْ فِي قَلْبِهِ يَتَحَنَّنُ بِهَا عَلَى النَّاسِ، وَمِنْهُمْ أَبَوَاهُ وَقَرَابَتُهُ حَتَّى يُخْلِصَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَزَكَاةً مَعْطُوفٍ عَلَى مَا قَبْلَهُ، وَالزَّكَاةُ: التَّطَهِيرُ وَالْبَرَكَةُ وَالتَّنْمِيَةُ وَالْبِرُّ، أَي: جَعَلْنَاهُ مُبَارَكًا لِلنَّاسِ يَهْدِيهِمْ إِلَى الْخَيْرِ (١)

{ مِنْ لَدُنَّا } ولأن يحيى جاء إلى الدنيا حال كبر وضعف والديه، وهو كطفل يحتاج مَنْ يشملُه بالعطف والحنان، ويُعَوِّضُه حنان الوالدين، ويحتاج إلى مَنْ يُعَلِّمُه وَيُرَبِّيُه؛ لذلك تولى الحق سبحانه وتعالى هذه المهمة، فهو سبحانه خالقه ومُسمِّيُه ومُتولِّيُه فوهبه حناناً منه (٢)

{ وَزَكَاةً } أي: طهارة من الآفات والذنوب، فطهر قلبه وتزكى عقله، وذلك يتضمن زوال الأوصاف المذمومة، والأخلاق الرديئة، وزيادة الأخلاق الحسنة، والأوصاف المحمودة، ولهذا قال: { وَكَانَ تَقِيًّا } أي: فاعلا للمأمور، تاركاً للمحظور (٣)

(١) فتح القدير
(٢) الشعراوي
(٣) السعدي

وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤)

وقوله: {وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا} لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى طَاعَتَهُ لِرَبِّهِ، وَأَنَّهُ خَلَقَهُ ذَا رَحْمَةٍ وَزَكَاةٍ وَتَقَى، عَطَفَ بِذِكْرِ طَاعَتِهِ لَوَالِدَيْهِ وَبِرِّهِ بِهِمَا، وَمُجَانِبَتِهِ عُوقُقَهُمَا، قَوْلًا وَفِعْلًا وَأَمْرًا وَنَهْيًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: {وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا} (١)

قوله: **وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ** وذلك لأنه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى مثل تعظيم الوالدين، ولهذا السبب قال: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (٢)

وقوله: **وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا**، أي: لَمْ يَكُنْ مُسْتَكْبِرًا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ وَطَاعَةِ وَالِدَيْهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مُطِيعًا لِلَّهِ، مُتَوَاضِعًا لَوَالِدَيْهِ، قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَالْجَبَّارُ: هُوَ كَثِيرُ الْجَبْرِ، أَي: الْقَهْرُ لِلنَّاسِ، وَالظُّلْمُ لَهُمْ، وَكُلُّ مُتَكَبِّرٍ عَلَى النَّاسِ يَظْلِمُهُمْ: فَهُوَ جَبَّارٌ، وَقَدْ أُطْلِقَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى شَدِيدِ الْبَطْشِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطْشَتُمْ جَبَّارِينَ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: أَتُرِيدُ أَنْ نَقْتُلَكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ (٣)

(١) ابن كثير
(٢) مفاتيح الغيب للرازي
(٣) أضواء البيان

{وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا} أَي: لَهُ الْأَمَانُ فِي هَذِهِ
الثَّلَاثَةِ الْأَحْوَالِ.

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: أَوْحَشُ مَا يَكُونُ الْخُلُقُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: يَوْمَ يُولَدُ،
فَيَرَى نَفْسَهُ خَارِجًا مِمَّا كَانَ فِيهِ، وَيَوْمَ يَمُوتُ فَيَرَى قَوْمًا لَمْ يَكُنْ عَائِنَهُمْ،
وَيَوْمَ يُبْعَثُ، فَيَرَى نَفْسَهُ فِي مَحْشَرٍ عَظِيمٍ. قَالَ: فَأَكْرَمَ اللَّهُ فِيهَا يَحْيَى بْنَ
زَكَرِيَّا فَخَصَّهُ بِالسَّلَامِ عَلَيْهِ، {وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ
حَيًّا} (١)

وَذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ بِإِسْنَادِهِ عَنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ
قَالَ: إِنَّ عِيسَى وَيَحْيَى النَّقِيَّ فَقَالَ لَهُ عِيسَى: اسْتَغْفِرْ لِي، أَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي،
فَقَالَ الْآخَرُ: اسْتَغْفِرْ لِي، أَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي، فَقَالَ عِيسَى: أَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي،
سَلَّمْتُ عَلَى نَفْسِي وَسَلَّمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ (٢)

(١) ابن كثير
(٢) أضواء البين _ ابن كثير



وقفات تدبرية

فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ : لو لم تستطع أن تدعو إلى الله إلا بالإيماء والإشارة فافعل
فخرج على قومه من المحراب , فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب.
هل عرفت مكان الهبات ؟

يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا

نعم الدين دين يسر وسماحة . لكنه منهج جد واهتمام

{**وكان تقياً**} قيمة المرء عند الله ليس بما يملك من مال او جاه بل بما يملك
من نفيس الأخلاق والدين ، والتقوى رأس مالك

وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً{قال سعيد بن المسيب رحمه الله" : البارّ
لا يموت ميتة السوء.

حين يعطيك الله الحنان والرحمة فقد أعطاك خيراً عظيماً.

الحنان هبة من الله، الحنان منحة.. القلب الحنون ليس ضعيفاً.. وحناناً من
لدا

وبراً بوالديه، ولم يكن جباراً عصياً، القلوب الرحيمة هي المحبوبة للوالدين



الدرس الخامس

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦)
فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا
(١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨)

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ زَكَرِيَّا، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهُ أُوْجِدَ مِنْهُ، فِي حَالِ كِبَرِهِ
وَعُقْمِ زَوْجَتِهِ، وَلَدًا زَكِيًّا طَاهِرًا مُبَارَكًا -عَطَفَ بِذِكْرِ قِصَّةِ مَرْيَمَ فِي إِجَادِهِ
وَلَدَهَا عِيسَى، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَبِي، فَإِنَّ بَيْنَ الْقِصَّتَيْنِ مُنَاسَبَةٌ
وَمُشَابَهَةٌ؛ وَلِهَذَا ذَكَرَهُمَا فِي آلِ عِمْرَانَ وَهَاهُنَا وَفِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ، يُقْرَنُ
بَيْنَ الْقِصَّتَيْنِ لِتَقَارُبِ مَا بَيْنَهُمَا فِي الْمَعْنَى، لِيُذَلَّ عِبَادُهُ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعِظْمَةِ
سُلْطَانِهِ(١)

وقصة مريم في واقع الأمر كانت قبل قصة زكريا ويحيى؛ لأن طلب
زكريا للولد جاء نتيجة لما سمعه من مريم حين سألها عن طعام عندها لم
يأت به، وهو كافلها ومُتولّي أمرها، فتعجب أن يرى عندها رزقاً لم يحمله
إليها، وهي مقيمة على عبادتها في محرابها، فقال لها: {يامريم أنى لك هذا
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}
وشاءت إرادة الله أن تنطق مريم بهذه المقولة: {إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ} لأنها ستُنَبِّه زكريا إلى شيء، لذلك يقول الحق سبحانه
وتعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ} [آل عمران: ٣٨] .

(١) ابن كثير

فما دام أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب، فلماذا لا أدعو الله بولد صالح يحمل أمر الدعوة من بعدي، وطالما أن الرزق بغير حساب فلن يمعنه كِبَر السنِّ أو العُقم أو خلافه.

إذن: فمريم هي التي أوحَتْ لذكريا بهذا الدعاء، واستجاب الله لذكريا ورزقه يحيى؛ ليكون ذلك مقدمة وتمهيداً لمريم، فلا تنزعج من حَمَلها، وتردّ هذه المسألة إلان الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب، وليكون ذلك إيناساً لنفسها واطمئناناً، وإلاّ فمن الممكن أن تلعب بها الظنون وتنتابها الشكوك، وتتصور أن هذا الحمل نتيجة شيء حدث لم تشعر به، أو كانت نائمة مثلاً.

لكن الحق تبارك وتعالى يقطع عنها كل هذه الشكوك، ويعطيها مقدمة تراها وتعايشها بنفسها في طعام لم يأت به أحد إليها، وفي حَمَل زوجة زكريا وهي عاقر لا تلد^(١)

وَإِذْ نُنزِّلُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ وَالْمُرَادُ بِالذِّكْرِ: التِّلَاوَةُ، أَيِ اتُّلُ خَبَرَ مَرْيَمَ الَّذِي نَقَّصَهُ عَلَيْكَ

{**وَإِذْ نُنزِّلُ فِي الْكِتَابِ**} الكريم {**مَرْيَمَ**} عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعيها الكامل، أي: واذكر في الكتاب مريم، في حالها الحسنة، حين {**انْتَبَذَتْ**} أي: تباعدت عن أهلها {**مَكَانًا شَرْقِيًّا**} أي: مما يلي الشرق عنهم^(٢)

(١) الشعراوي
(٢) تفسير السعدي

وَاحْتَلَفَ النَّاسُ لِمَ انْتَبَذَتْ، فَقَالَ السُّدِّيُّ: انْتَبَذَتْ لِتَطْهَرَ مِنْ حَيْضٍ أَوْ نَفَاسٍ. وَقَالَ غَيْرُهُ: لِتَعْبُدَ اللَّهَ، وَهَذَا حَسَنٌ. وَذَلِكَ أَنَّ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ كَانَتْ وَفَّقًا عَلَى سِدَانَةِ الْمَعْبَدِ وَخِدْمَتِهِ وَالْعِبَادَةِ فِيهِ (يعني قائمة على خدمة بيت المقدس)، فَتَنَحَّتْ مِنَ النَّاسِ لِذَلِكَ، وَدَخَلَتْ الْمَسْجِدَ إِلَى جَانِبِ الْمِحْرَابِ فِي شَرْقِيَّةِ لِتَخْلُوَ لِلْعِبَادَةِ.

فَقَوْلُهُ: (مَكَانًا شَرْقِيًّا)

أَيَّ مَكَانًا مِنْ جَانِبِ الشَّرْقِ. وَالشَّرْقُ بِسُكُونِ الرَّاءِ الْمَكَانُ الَّذِي تُشْرِقُ فِيهِ الشَّمْسُ. وَالشَّرْقُ بِفَتْحِ الرَّاءِ الشَّمْسُ^(١)

وكانت قد انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، قيل: أصابها الحيض فخرجت عن المسجد، حتى لا تقذر المسجد، والحائض لا تقرب المسجد، فانتبذت مريم مكاناً في شرقي المسجد^(٢)

فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧)

فاتخذت من دون أهلها سترا يسترها عنهم وعن الناس

وقوله {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا} وهو جبريل عليه السلام {فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} أي كاملاً من الرجال في صورة جميلة وهيئة حسنة لا عيب فيه ولا نقص لكونها لا تحتل رؤيته على ما هو عليه فلما رآته في هذه الحال وهي معتزلة عن أهلها منفردة عن الناس قد اتخذت الحجاب عن أعز الناس عليها وهم أهلها خافت أن يكون رجلاً قد تعرض لها بسوء وطمع فيها فاعتصمت بربها واستعاذت منه فقالت له {إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ}

(١) القرطبي

(٢) الطبري

أي التجئ به وأعتصم برحمته أن تنالني بسوء {إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا} أي إن كنت تخاف الله وتعمل بتقواه فاترك التعرض لي فجمعت بين الاعتصام بربها وبين تخويفه وترهيبه وأمره بلزوم التقوى وهي في تلك الحالة الخالية والشباب والبعد عن الناس وهو في ذلك الجمال الباهر والبشرية الكاملة السوية ولم ينطق لها بسوء أو يتعرض لها وإنما ذلك خوف منها وهذا أبلغ ما يكون من العفة والبعد عن الشر وأسبابه وهذه العفة - خصوصاً مع اجتماع الدواعي وعدم المانع - من أفضل الأعمال

ولذلك أثنى الله عليها فقال {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا} {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} (١)

وَقَوْلُهَا إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا

تَذَكِيرٌ لَهُ بِالْمَوْعِظَةِ بِأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَ رَبَّهُ (٢)

(١) السعدي
(٢) التحرير والتنوير



وقفات تدبرية

وانكر في الكتاب مريم" جمعت بعض الزاد. وأثواب العبادة. وخرجت .. لم تعلم أن الذي خرجت من أجله سيحدث العالمين بتفاصيل خروجها/ علي الفيافي

العظمة ليست حكراً على الرجال الأشداء، بل قد تكون في امرأة تحلّت بالصبر والحياء

إذ انتبذت من أهلها" يشتد الأُنس بالله ببعض الصالحين لدرجة يستوحشون فيها من أقرب الناس.. فيبحثون عن أماكن خالية يناجون فيها حبيبهم

فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا" أحكم إغلاق النوافذ المطله على خلقه .. يفتح لك باباً عظيماً مطلقاً على كرمه

فاتخذت من دونهم (حجاباً)" تاريخ المرأة يصنع خلف الحجاب. المرأة بلا حجاب كائن في العراء

فتمثل لها بشراً سوياً" ابتليت بشباب في صورة فائقة الحسن. اختباراً لعفتها. فتعودت بالله منه. لكمال عفافها وطهرها.

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا ﴾ هكذا يكون المؤمن الصادق في إيمانه ملتجئاً دوماً إلى الله



الدرس السادس

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى
يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ
رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا
(٢١)

قال الإمام الشنقيطي قوله تعالى: قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا
زَكِيًّا، ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ ذَلِكَ الرُّوحَ الَّذِي هُوَ جِبْرِيلُ
قَالَ لَهَا إِنَّهُ رَسُولُ رَبِّهَا لِيَهَبَ لَهَا، أَي: لِيُعْطِيَهَا غُلَامًا، أَي: وَوَلَدًا «زَكِيًّا»
أَي: طَاهِرًا مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، كَثِيرَ الْبَرَكَاتِ، وَبَيِّنَ فِي غَيْرِ هَذَا
الْمَوْضِعِ كَثِيرًا مِنْ صِفَاتِ هَذَا الْغُلَامِ الْمُؤَهَّبِ لَهَا، وَهُوَ عِيسَى عَلَيْهِ
وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَقَوْلِهِ: إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي
الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ

والمقصود بقوله: لِأَهَبَ لَكِ: أَظْهَرَ الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي: أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِ
جِبْرِيلَ لَهَا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا، أَي: لِأَكُونَ سَبَبًا
فِي هِبَةِ الْغُلَامِ (١)

(١) أضواء البيان

قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)

فَلَمَّا سَمِعَتْ مَرْيَمُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ اسْتَفْهَمَتْ عَنْ طَرِيقِهِ فَ (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) أَي بِنِكَاحٍ . (وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) أَي زَانِيَةً . وَذَكَرَتْ هَذَا تَأْكِيدًا ، لِأَنَّ قَوْلَهَا لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ يَشْمَلُ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ (١)

فهي لا تتصور وسيلة أخرى مطلقاً للإنجاب إلا بهذه الوسيلة: أن يلتقي الرجل مع المرأة، وهي لم تتزوج بعد، ولم تفكر في الرذيلة من ناحية أخرى: {قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا} (٢)

{قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ} أَي: فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ مُجِيبًا لَهَا عَمَّا سَأَلَتْ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ قَالَ: إِنَّهُ سَيُوجِدُ مِنْكَ غُلَامًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بَعْلٌ وَلَا تُوجَدُ مِنْكَ فَاحِشَةٌ، فَإِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ} أَي: دَلَالَةً وَعَلَامَةً لِلنَّاسِ عَلَى قُدْرَةِ بَارِيهِمْ وَخَالِقِهِمْ، الَّذِي نَوْعٌ فِي خَلْقِهِمْ، فَخَلَقَ آبَاهُمْ آدَمَ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ وَلَا أَنْثَى، وَخَلَقَ حَوَاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أَنْثَى، وَخَلَقَ بَقِيَّةَ الدَّرَجَةِ مَنْ ذَكَرٍ وَأَنْثَى، إِلَّا عِيسَى فَإِنَّهُ أَوْجَدَهُ مِنْ أَنْثَى بِلَا ذَكَرٍ، فَتَمَّتِ الْقِسْمَةُ الرُّبَاعِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ (٣)

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، أَي: وَسَتَلِدِينَ ذَلِكَ الْغُلَامَ الْمُبَشَّرَ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمْسَكَ بَشَرٌ، وَقَدْ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ «آل

(١) القرطبي

(٢) دروس الشيخ محمد حسان

(٣) ابن كثير

عِمْرَانَ « فِي قَوْلِهِ: قَالَتْ رَبِّ اَنْىَ يَكُونُ لىِ وَاَلْدُ وَاَلَمْ يَمْسَسْنىِ بَشْرًا قَالَ كَذٰلِكَ
اَللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ اِذَا قَضَىٰ اَمْرًا فَاِنَّمَا يَقُوْلُ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ (١)

وَقَوْلُهُ: {وَرَحْمَةً مِّنَّا} اَيَّ وَنَجْعَلُ هٰذَا الْعُلَامَ رَحْمَةً مِّنَ اَللهِ نَبِيًّا مِّنَ الْاَنْبِيَاءِ
يَدْعُو اِلَىٰ عِبَادَةِ اَللهِ تَعَالَىٰ وَتَوْحِيْدِهِ

وَقَوْلُهُ: {وَكَانَ اَمْرًا مَّفْضِيًّا} يُحْتَمَلُ اَنَّ هٰذَا مِنْ كَلَامِ جِبْرِيلَ لِمَرْيَمَ، يُخْبِرُهَا
اَنَّ هٰذَا اَمْرٌ مُّقَدَّرٌ فِي عِلْمِ اَللهِ تَعَالَىٰ وَقَدْرُهُ وَمَشِيئَتِهِ. وَيُحْتَمَلُ اَنَّ يَكُوْنُ مِنْ
خَبَرِ اَللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُوْلِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اَللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢)

كيف تم حمل مريم بعيسى؟

الجواب ..

قال تعالى : {فَنَفَخْنَا فِيْهَا مِنْ رُّوْحِنَا} فالنفخة خرجت من جبريل، وأين
نفخ؟ في جيب درعها -فتحة الفستان أو القميص عند الرقبة- فولجت (أي
دخلت) النفخة إلى الرحم بقدره الله فحملت، وهذا على الله يسير، فالذي
خلق كل هذا الكون لا يعجزه أن يخلق إنساناً بغير أب، وهكذا خلقه من
أنثى بغير ذكر، فهذا هو عيسى عليه السلام

(١) أضواء البيان

(٢) ابن كثير

وقفات تدبرية

اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا قَدَّمَ قِصَّةَ يَحْيَى عَلَى قِصَّةِ عِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِأَنَّ خَلْقَ الْوَلَدِ مِنْ شَيْخَيْنِ فَاثْنَيْنِ أَقْرَبُ إِلَى مَنَاهِجِ الْعَادَاتِ مِنْ تَخْلِيقِ الْوَلَدِ لَا مِنْ الْأَبِّ الْبَتَّةَ وَأَحْسَنُ الطَّرِيقِ فِي التَّعْلِيمِ وَالتَّفْهِيمِ الْأَخْذُ مِنَ الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبُ مَتَرَقِيًا إِلَى الْأَصْعَبِ فَالْأَصْعَبُ.

[قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسنى بشر] نحن إن اردنا امر ، اتبعنا الأسباب لحدوثه لكن الله إن أراد امرنا فالأسباب لاوزن لها عنده

{ ولنجعله آية للناس } عيسى كان للناس على ثلاث أوجه فئة اتهمته وأمه وفئة رفعته للألوهية وفئة زادهم إيمان بأن الله على ما يشاء قدير

ولنجعله آية للناس أحيي في القلوب العلامات الدالة عن الله



الدرس السابع

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ
النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا
مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهَزِي إِلَيْكَ
بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا (٢٥)

اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام فالمشهور عن الجمهور
أنها حملت به تسعة أشهر (١)

وبدأت بوادر الحمل كما هو معلوم للجميع، وهنا نظر يوسف النجار ذلكم
الرجل الذي كان يخدم بيت المقدس مع مريم، نظر إلى بطنها تعلق يوماً
بعد يوم فيتعجب! ولكن يدفع عن نفسه هذه الخواطر لعلمه بطهر مريم،
ولكنه لم يستطع السكوت فقال لها: يا مريم! إني سائلك عن شيء ولا
تعجلي علي، فقالت مريم: سل عما شئت يا يوسف، وقل قولاً جميلاً.
فقال لها: يا مريم! هل ينبت زرع بغير بذر؟! وهل ينبت شجر بغير غيث
أو مطر؟! وهل يكون ولد بغير أب؟! فقالت مريم: نعم يا يوسف.
قال: كيف ذلك يا مريم؟! فقالت: يا يوسف! ألم تعلم أن الله أنبت الزرع
يوم أنبته بغير بذر؟! وأنبت الشجر يوم خلقه بغير غيث أو مطر؟! وخلق
آدم يوم خلقه من غير أب ومن غير أم؟! قال يوسف: أشهد أن الله على كل
شيء قدير (٢)

(١) ابن كثير
(٢) دروس الشيخ محمد حسان



فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا

وَلَمَّا اسْتَشْعَرَتْ مَرِيْمٌ مِنْ قَوْمِهَا اتِّهَمَهَا بِالرِّيْبَةِ، انْتَبَدَّتْ مِنْهُمْ مَكَانًا قَصِيًّا،
أَي: قاصِيًا مِنْهُمْ بَعِيدًا عَنْهُمْ؛ لِئَلَّا تَرَاهُمْ وَلَا يَرَوْهَا (١)

وَإِنَّمَا بَعَدَتْ فِرَارًا مِنْ تَغْيِيرِ قَوْمِهَا إِيَّاهَا بِالْوِلَادَةِ مِنْ غَيْرِ زَوْجٍ (٢)

{فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ} أَي فَالْجَآهَا وَمَخِضَتِ الْمَرْأَةُ إِذَا تَحَرَّكَ الْوَلَدُ فِي بَطْنِهَا
لِلخُرُوجِ {إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ} لِتَسْتَتِرَ بِهِ وَتَعْتَمِدَ عَلَيْهِ عِنْدَ الْوِلَادَةِ (٣)

وَالْمَخَاضُ - يَفْتَحُ الْمِيمِ -: طَلِقَ الْحَامِلِ، وَهُوَ تَحَرُّكُ الْجَنِينِ لِلخُرُوجِ. وَالْفَاءُ
فِي قَوْلِهِ: فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ لِلتَّعْقِيبِ الْعُرْفِيِّ، أَي جَاءَهَا الْمَخَاضُ بَعْدَ تَمَامِ
مُدَّةِ الْحَمْلِ (٤)

وَجُمْلَةُ قَالَتْ اسْتِنْتَفَأْتُ بَيَانِي، لِأَنَّ السَّامِعَ يَتَشَوَّفُ إِلَى مَعْرِفَةِ حَالِهَا عِنْدَ إِبَانِ
وَضَعِ حَمْلِهَا بَعْدَ مَا كَانَ أَمْرُهَا مُسْتَتِرًا غَيْرَ مَكْشُوفٍ بَيْنَ النَّاسِ وَقَدْ أَنْ أَنْ
يُنْكَشِفَ، فَيُجَابُ السَّامِعُ بِأَنَّهَا تَمَّتْ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَلِكَ فَهِيَ فِي حَالَةٍ مِنْ
الْحُزْنِ تَرَى أَنَّ الْمَوْتَ أَهْوَنُ عَلَيْهَا مِنَ الْوُقُوعِ فِيهَا.

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَقَامِ صَبْرِهَا وَصِدْقِهَا فِي تَلْقَى الْبَلْوَى الَّتِي ابْتَلَاهَا اللَّهُ
تَعَالَى فَذَلِكَ كَانَتْ فِي مَقَامِ الصِّدْقِيَّةِ.

وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهَا قَبْلَ هَذَا هُوَ الْحَمْلُ. أَرَادَتْ أَنْ لَا يُتَطَرَّقَ عِرْضُهَا
بِطَعْنٍ وَلَا تَجُرَّ عَلَى أَهْلِهَا مَعْرَةً. وَلَمْ تَتَمَنَّ أَنْ تَكُونَ مَاتَتْ بَعْدَ بُدُوِّ الْحَمْلِ

(١) ابن كثير
(٢) القرطبي
(٣) تفسير أبو السعود
(٤) التحرير والتنوير

لَأَنَّ الْمَوْتَ حِينِيذٍ لَا يَدْفَعُ الطَّغْنَ فِي عِرْضِهَا بَعْدَ مَوْتِهَا وَلَا الْمَعْرَةَ عَلَى
أَهْلِهَا إِذْ يُشَاهِدُ أَهْلَهَا بَطْنَهَا بِحَمْلِهَا وَهِيَ مَيِّتَةٌ فَتَطْرُقُهَا الْقَالَةُ (١)

قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا

قال الألوسي ما ملخصه: «وإنما قالت ذلك مع أنها كانت تعلم ما جرى
بينها وبين جبريل من الوعد الكريم، استحياء من الناس، وخوفا من
لائمتهم، أو حذرا من وقوع الناس في المعصية بسبب كلامهم في شأنها (٢)

وَكَأَنْتَ نَسِيًّا مَنْسِيًّا

قَالَ قَتَادَةُ: {وَكَأَنْتَ نَسِيًّا مَنْسِيًّا} أَي: شَيْئًا لَا يُعْرَفُ، وَلَا يُذَكَّرُ، وَلَا يُدْرَى
مَنْ أَنَا.

(وَكَأَنْتَ نَسِيًّا مَنْسِيًّا) . النَّسِيُّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الشَّيْءُ الْحَقِيرُ الَّذِي شَأْنُهُ أَنْ
يُنْسَى وَلَا يُتَأَلَّمُ لِفَقْدِهِ كَالْوَتِدِ وَالْحَبْلِ لِلْمَسَافِرِ وَنَحْوِهِ (٣)

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا

(فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا) فُرِيَ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكَسْرِهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمُرَادُ بِ" -
مِنْ " جِبْرِيلُ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ عِيسَى حَتَّى أَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا، وَقَالَهُ عُلْقَمَةُ وَالضَّحَّاكُ
وَقَتَادَةُ، وَقَوْلُهُ: (أَلَّا تَحْزَنِي) تَفْسِيرُ النِّدَاءِ، وَ" أَنْ " مُفَسِّرَةٌ بِمَعْنَى أَيُّ،
الْمَعْنَى: فَلَا تَحْزَنِي بِوِلَادَتِكَ. (قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا) يَعْنِي عِيسَى.
وَالسَّرِيُّ مِنَ الرِّجَالِ الْعَظِيمِ الْخِصَالِ السَّيِّدُ (٤)

(١) التحرير والتنوير

(٢) التفسير الوسيط

(٣) القرطبي

(٤) القرطبي

وعن ابن عباس، قوله (قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا) قال: السري: النهر الذي كان تحت مريم حين ولدته كان يجري يسمى سرياً.

وعن عمرو بن ميمون الأودي، قال في هذه الآية (قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا) قال: السري: نهر يُشرب منه^(١)

(وَهَزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا) قَوْلُهُ تَعَالَى: " وَهَزِّي " أَمْرًا بِهَزِّ الْجِذْعِ الْيَابِسِ لِتَرَى آيَةً أُخْرَى فِي إِحْيَاءِ مَوَاتِ الْجِذْعِ^(٢)

وكان الحق تبارك وتعالى يريد أن يُظهر لمريم آية أخرى من آياته، فأمرها أن تهزّ جذع النخلة اليابس الذي لا يستطيع هزّه الرجل القوي، فما بالها وهي الضعيفة التي تعاني ألم الولادة ومشاقها؟

كما أن الحق سبحانه قادر على أن يُنزل لها طعامها دون جَهْد منها ودون هزّها، إنما أراد سبحانه أن يجمع لها بين شيئين: طلب الأسباب والاعتماد على المسبب، والأخذ بالأسباب في هزّ النخلة، رغم أنها متعبة قد أرهقها الحمل والولادة، وجاء بها إلى النخلة لتستند إليها وتتشبث بها في وحدتها لنعلم أن الإنسان في سعيه مُطالب بالأخذ بالأسباب مهما كان ضعيفاً.

لذلك أبقى لمريم اتخاذ الأسباب مع ضعفها وعدم قدرتها، ثم تعتمد على المسبب سبحانه الذي أنزل لها الرُّطْب مُستوياً ناضجاً، وهل استطاعت مريم أن تهزّ الجذع الكبير اليابس؟

(١) الطبري
(٢) مفاتيح الغيب



إنها مجرد إشارة إليه تدلُّ على امتثال الأمر، والله تعالى يتولى إنزال الطعام لها، وقد صَوَّرَ الشاعر هذا الموقف بقوله:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِمَرْيَمَ ... وَهُزِّي إِلَيْكَ الْجَذْعَ يَسَاقُطُ الرُّطْبُ
وَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهَا وَمِنْ غَيْرِ هَزَّةٍ ... وَلَكِنْ كُلِّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبٌ^(١)

هنا ملحظ جميل، لا يظن أحد أن هز مريم الجذع يمينا أو يسارا سينزل الرطب، وإنما هي دعوة من الله للأخذ بالأسباب ثم بعد ذلك التوكل على مسبب الأسباب.

يا مريم! حتى وأنتِ في هذه الحالة خذي بأسباب الرزق، لا بد أن تسعى لرزق الله، وتأخذ بالأسباب، أما أن تجلس لتنتظر الزرق من السماء دون عمل، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة^(٢)

قال الرَّبِيعُ بْنُ حُثَيْمٍ: مَا لِلنَّفْسَاءِ عِنْدِي خَيْرٌ مِنَ الرُّطْبِ^(٣)

وقيل: ما للنفساء خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل، وقيل: إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب^(٤)

(١) الشعراوي
(٢) دروس الشيخ محمد حسان
(٣) البغوي
(٤) الكشاف



وقفات تدبرية

فحملته... فأنت به قومها تحمله.. فحملته... تحمله ... يسجل القرآن عناء الأمهات.

فانتبذت به مكانا قصيا” منحها الله العطايا وهي في المكان القصي البعيد مهما كنت بعيدا عن الناس عن عنايتهم عن دعمهم لست بعيدا عن عطية ربك

قالت مريم (يا ليتني مت قبل هذا) كم من (لفظ) تمنيناه ثم ندمنا عليه ، (لا أحسن من تدبير الله لنا)

يا ليتني مت قبل هذا “قالتها امرأة صالحة في لحظة ألم .. لا تعاتب على الكلمات في الأوقات الصعبة

مريم عليها السلام تمنى الموت ثم أصبحت (أم نبي) الموقف الذي تتمنى فيه الموت قد تكون فيه (حياتك الحقيقية)

(يا ليتني مت قبل هذا **وكننت نسيا منسيا**) العفيفات يتمنين الموت،، ولا أن تمس أعراضهن بكلمة، فضلا عن أن يصل إليها فاجر

لكمال عفافها وطهرها تمننت أن تكون : ﴿ نسياً منسيا ﴾ فخلدها الله ذكراً لا يُنسى : ﴿ واذكر في الكتاب مريم ﴾

أول بر عيسى بوالدته قوله: (ألا تحزني) من البر أن تحول بين والدك وبين الحزن”

الدرس الثامن

فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي
نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا
تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا
كَانَ أَبُوكَ امْرَأً سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا) أَي فَكُلِّي مِنَ الْجَنِيِّ، وَاشْرَبِي
مِنَ السَّرِيِّ، "وَقَرِّي عَيْنًا" بِرُؤْيَةِ الْوَلَدِ النَّبِيِّ (١)

وقيل : {وقري} أي استقري {عينًا} بالنوم، فإن المهموم لا ينام، والعين لا
تستقر ما دامت يقظى (٢)

{فَكُلِّي} مِنَ التَّمْرِ، {وَاشْرَبِي} مِنَ النَّهْرِ {وَقَرِّي عَيْنًا} بَعِيسِي، فَهَذَا
طَمَآنِينَتُهَا مِنْ جِهَةِ السَّلَامَةِ مِنَ أَلْمِ الْوَلَادَةِ، وَحُصُولِ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ
وَالهِنِيِّ. .. **وأما من جهة قالة الناس**، فأمرها أنها إذا رأت أحدا من البشر،
أن تقول على وجه الإشارة: {إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا} أَي: سَكُوتًا {فَلَنْ
أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا} أَي: لَا تَخَاطِبِيهِمْ بِكَلَامٍ، لِتَسْتَرِيحِي مِنْ قَوْلِهِمْ وَكَلَامِهِمْ.
وَكَانَ مَعْرُوفًا عِنْدَهُمْ أَنَّ السَّكُوتَ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْمَشْرُوعَةِ، وَإِنَّمَا لَمْ تُوَمِّرْ
بِخَطَابِهِمْ فِي نَفْيِ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهَا لِأَنَّ النَّاسَ لَا يَصَدِّقُونَهَا، وَلَا فِيهِ فَائِدَةٌ (٣)

(١) القرطبي
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور
(٣) تفسير السعدي

فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشْرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا

لقدت الحجة، وثبت الفؤاد، فحملت هذا الطفل المبارك الميمون الطاهر بكل قوة، وانطلقت به تحمله إلى قومها^(١)

وَقَوْلُهُ: {فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشْرِ أَحَدًا} أي: مَهْمَا رَأَيْتِ مِنْ أَحَدٍ، {فَقُولِي إِنَّي

نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا}^(٢)

وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا صَامُوا فِي شَرِيْعَتِهِمْ يَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الطَّعَامُ وَالْكَلامُ^(٣)

وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا، قِيلَ أَمِرْتُ أَنْ تَقُولَ ذَلِكَ بِاللَّفْظِ، وَقِيلَ أَمِرْتُ أَنْ تَقُولَهُ بِالْإِشَارَةِ، وَكَوْنُهَا أَمِرْتُ أَنْ تَقُولَهُ بِاللَّفْظِ هُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ ; كَمَا قَالَه الْقُرْطُبِيُّ وَأَبُو حَيَّانَ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ; لِأَنَّ ظَاهِرَ الْقَوْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ الْآيَةَ، أَنَّهُ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَاسْتَدَلَّ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا أَمِرْتُ أَنْ تَقُولَ ذَلِكَ بِالْإِشَارَةِ بِأَنَّهَا لَوْ قَالَتْهُ بِاللَّفْظِ أَفْسَدَتْ نَذْرَهَا الَّذِي نَذَرْتَهُ إِلَّا تُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا، فَإِذَا قَالَتْ لِإِنْسِيٍّ بِلسَانِهَا: إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا، فَقَدْ كَلَّمَتْ ذَلِكَ الْإِنْسِيَّ فَأَفْسَدَتْ نَذْرَهَا، وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ الْأَخِيرَ لِذِلَالَةِ الْآيَةِ عَلَيْهِ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ، قَالَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا، الْمُرَادُ بِهَذَا الْقَوْلِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ لَا أَنَّ الْمُرَادَ الْقَوْلَ اللَّفْظِيَّ لِئَلَّا يُنَافِيَ فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا، وَأَجَابَ الْمُخَالِفُونَ عَنْ هَذَا بِأَنَّ الْمَعْنَى فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا بَعْدَ قَوْلِي: إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَقَدْ رَأَيْتِ كَلَامَ

(١) دروس الشيخ محمد حسان

(٢) ابن كثير

(٣) ابن كثير

الْعُلَمَاءِ فِي الْآيَةِ، وَأَنَّ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ السِّيَاقِ، وَأَنَّ الثَّانِيَّ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الْكَلَامِ لِلْإِنْسِيِّ مُطْلَقًا^(١)

فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا
الْمُرَادُ شُمُولُ نَفْيِ الْكَلَامِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ كَائِنًا مَنْ كَانَ.

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧)

ونعجب للسيدة مريم، فبدل أن تخجل مما حدث وتستتر بوليدها عن أعين الناس، أو تنتقل به إلى مكان آخر في فيافي الأرض إذا بها تحمله، وتذهب به، وتبادر به قومها، وما كانت لتفعل ذلك وتتجرأ عليه إلا لثقتها في الحجة التي معها^(٢)

قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا فَلَمَّا رَأَوْهَا كَذَلِكَ، أَغْظَمُوا أَمْرَهَا وَاسْتَنْكَرُوهُ جِدًّا، وَقَالُوا: {يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا} أَي: أَمْرًا عَظِيمًا {يَا أُخْتَ هَارُونَ} أَي: يَا شَبِيهَةَ هَارُونَ فِي الْعِبَادَةِ {مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا} أَي: أَنْتِ مِنْ بَيْتِ طَيْبٍ طَاهِرٍ، مَعْرُوفٍ بِالصَّلَاحِ^(٣)

{يَا أُخْتَ هَارُونَ} الظاهر، أنه أخ لها حقيقي، فنسبوا إليها، وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء وليس هو هارون بن عمران أخا موسى وقوله {مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ} يقول: ما كان أبوك رجل سوء يأتي الفواحش {وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا} يقول: وما كانت أمك زانية^(٤)

(١) أضواء البيان
(٢) الشعراوي
(٣) ابن كثير
(٤) الطبري

وقفات تدبرية

{ فكلي واشربي وقرى عينا } انشغالك بالمهام العظام ووقوع الأزمات الكبار عليك لا يمنعك أن تستمتع بالأشياء الجميلة في حياتك، لاتنس نفسك! فلن أكلم اليوم إنسيا". كانت خائفة ألا تستطيع إقناع قومها وهي تتكلم... فكيف وهي صامته إنه امتحان التوكل".

{ إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلّم اليوم إنسياً } كثير من المشاكل علاجها بالصمت , الصمت في بعض المواطن..حكمة

{ فأتت به قومها تحمله.. } وحملت معه الهموم والغموم وطعنات نظرات الناس واتهامهم.. أي قلب لتلك العذراء الطاهرة تحمل كل هذا..

{ قالوا يا مريم لقد جننت شيئا فريا } لاتحكم على الأمور بظواهرها وإن بدت لك كما تظن فتريث ولا تطلق أحكامك ،فكم من مظلوم بسوء الظن { يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء } الشجرة الطيبة ، لا تنتج إلا ثمار طيبة.

{ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا } الفتاة على تربية أهلها ، الأب الأم الأخ

"وما كانت (أمك) بغيا" عفاك وحجابك يسري في بناتك تاكدي من حجابك من أجلهن



﴿ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأً سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ صلاح الوالدين له انعكاس

إيجابي على سلوك الذرية وتصرّفها.

{ يا أخت هارون ما كان أبوك امراً سوء وما كانت أمك بغيا } سيرة أهلك

الجميلة ، لا تفسدها وتشوهها بأفعالك المشينة!

سورة مريم



الدرس التاسع

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي
عَبْدُ اللَّهِ أَتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا
كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي
وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)

فَأَشَارَتْ، مَرِيْمٌ، إِلَيْهِ، أَيِ إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ كَلِمُوهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَمَّا لَمْ تَكُنْ لَهَا حُجَّةٌ أَشَارَتْ إِلَيْهِ لِيَكُونَ كَلَامُهُ حُجَّةً لَهَا.
وَفِي الْقِصَّةِ: لَمَّا أَشَارَتْ إِلَيْهِ غَضِبَ الْقَوْمُ، وَقَالُوا مَعَ مَا فَعَلْتَ أَتَسْخَرِينَ
بِنَا؟ ثَم، قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا أَي: مَنْ هُوَ فِي الْمَهْدِ،
وَهُوَ حِجْرٌ هَا قَالِ السُّدِّيُّ: فَلَمَّا سَمِعَ عِيسَى كَلَامَهُمْ تَرَكَ الرِّضَاعَ وَأَقْبَلَ
عَلَيْهِمْ. وَقِيلَ: لَمَّا أَشَارَتْ إِلَيْهِ تَرَكَ النَّذْيَ وَاتَّكَأَ عَلَى يَسَارِهِ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ
وَجَعَلَ يُشِيرُ بِيَمِينِهِ.

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ، وَقَالَ وَهَبٌ: أَتَاهَا زَكْرِيَّا عِنْدَ مُنَازَرَتِهَا الْيَهُودَ فَقَالَ
لِعِيسَى انْطِقْ بِحُجَّتِكَ إِنْ كُنْتَ أَمْرَتْ بِهَا، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: بَلْ هُوَ يَوْمَ وُلِدَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ، أَقْرَّ عَلَى
نَفْسِهِ بِالْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ لِنَلَّا يُتَّخَذَ إِلَهًا، أَتَانِي الْكِتَابَ
وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، قِيلَ: مَعْنَاهُ سَيُؤْتِينِي الْكِتَابَ وَيَجْعَلَنِي نَبِيًّا. وَقِيلَ: هَذَا إِخْبَارٌ
عَمَّا كُتِبَ لَهُ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ (١)

(١) تفسير البغوي

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا

الَّذِي اشْتَدَّتْ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِنَّمَا هُوَ نَفْيُ تَهْمَةِ الزُّنَا عَنْ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ ثُمَّ إِنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَنْصَ عَلَى ذَلِكَ وَإِنَّمَا نَصَّ عَلَى اثْبَاتِ عُبُودِيَّةِ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ جَعَلَ إِزَالََةَ التُّهْمَةِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْلَى مِنْ إِزَالََةِ التُّهْمَةِ عَنِ الْأُمَّ

والتَّعْبِيرُ فِي آتَانِيَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا بِصِغَةِ الْمَاضِي؛ إِمَّا بِاعْتِبَارِ مَا سَبَقَ فِي الْقَضَاءِ الْمَحْتَوَمِ، أَوْ بِجَعْلِ الْمُحَقَّقِ وَقُوعُهُ لَا مَحَالَةَ وَاقِعًا

ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ أَوَّلَ كَلِمَةٍ نَطَقَ لَهَا بِهَا عِيسَى وَهُوَ صَبِيٌّ فِي مَهْدِهِ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ، وَفِي ذَلِكَ أَعْظَمُ زَجْرٍ لِلنَّصَارَى عَنْ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُ اللَّهُ أَوْ ابْنُهُ أَوْ إِلَهٌ مَعَهُ^(١)

وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، التَّحْقِيقُ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ: أَنَّهُ عَبَّرَ بِالْمَاضِي عَمَّا سَيَقَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ تَنْزِيلًا لِتَحَقُّقِ الْوُقُوعِ مَنْزِلَةَ الْوُقُوعِ، وَنَظَائِرُهُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ** ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ**^(٢)

(١) أضواء البيان

(٢) أضواء البيان

وَقَوْلُهُ: وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا، أَي: كَثِيرَ الْبَرَكَاتِ ; لِأَنَّهُ يَعْلَمُ الْخَيْرَ وَيَدْعُو إِلَى اللَّهِ، وَيُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ

وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ أَي: أَمَرَنِي بِهَا وَالزَّكَاةَ زَكَاةَ الْمَالِ، أَوْ تَطْهِيرِ النَّفْسِ مَا دُمْتُ حَيًّا أَي: مُدَّةَ دَوَامِ حَيَاتِي، وَهَذِهِ الْأَفْعَالُ الْمَاضِيَةُ هِيَ مِنْ بَابِ تَنْزِيلِ مَا لَمْ يَقَعْ مَنَزِلَةً الْوَاقِعِ تَنْبِيهَا عَلَى تَحْقِيقِ وُفُوعِهِ لِكُونِهِ قَدْ سَبَقَ فِي الْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي مَعْطُوفٌ عَلَى مُبَارَكًا، وَاقْتَصَرَ عَلَى الْبِرِّ بِوَالِدَتِهِ لِأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ فِي تِلْكَ الْحَالِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ (١)

{**وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا**} أَي: متكبرا على الله، مترفعا على عباده {شَقِيًّا} في دنيائي أو أخراوي، فلم يجعلني كذلك بل جعلني مطيعا له خاضعا خاشعا متذللا متواضعا لعباد الله، سعيدا في الدنيا والآخرة، أنا ومن اتبعني.

فلما تم له الكمال، ومحامد الخصال قال: {**وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**} أَي: من فضل ربي وكرمه، حصلت لي السلامة يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم بعثي، من الشر والشيطان والعقوبة، وذلك يقتضي سلامته من الأهوال، ودار الفجار، وأنه من أهل دار السلام، فهذه معجزة عظيمة، وبرهان باهر، على أنه رسول الله، وعبد الله حقا (٢)

(١) فتح القدير
(٢) السعدي

وقفات تدبرية

كيف نكلم من كان في المهد " العادة تنهاهم عن أن يكلموه .. والمعجزة تأمره أن يكلمهم

قال إني "عبدالله" {أتاني الكتاب وجعلني نبيا} مهما تعددت ألقابك ومناصبك يبقى " عبوديتك لله " الوسام الأرفع بينهم

قال إني عبد الله { إن الذين جاءوا بالإفك } أنطق الله رضيعا من أجل عرض امرأة , وأنزل الله آيات تتلى إلى يوم القيامة من أجل عرض امرأة . أيها الخائضون في الأعراض إن شأنها عند الله عظيم

{ وجعلني مباركا أينما كنت } من أعظم ما يوفق له العبد أن يكون مباركا في كل مكان حلّ فيه أو مرّ به

{ وجعلني مباركا أينما كنت } لا يمر يومك إلا: علمت جاهلا أرشدت ضالا ساعدت محتاجا دفعت منكرا نشرت معروفا أدخلت سرورا نصرت مظلوما

{ وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْهُ جَبَّارًا شَقِيًّا } إياك أن تنزل دمة الأم في الخفاء ، فهي سقوط في الشقاء وغرق في البلاء!!

{ ولم يجعلني جبارا شقيا } الجبروت يورث الشقاء . فمن أظهر (الجبروت) فقد أخفى بين جنبيه الشقاء

وبرا بوالديتي..... العناوين الكبرى في حياة أول العزم من الرسل

إذا أحسست بالقسوة وسوء الخلق والشقاء وعدم التوفيق فراجع علاقتك وبرّك بأهلك



لا يجتمع الشقاء مع ثلاث : البر : "وَبَرًّا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا"
الدعاء : "ولم أكن بدعائك رب شقيا" "وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء
ربي شقيا" و كثرة تلاوة القرآن : "ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى"

سورة مريم



الدرس العاشر

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦)

قَالَ الزَّجَّاجُ: ذَلِكَ الَّذِي قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، لَا مَا تَقُولُهُ النَّصَارَى مِنْ أَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ وَأَنَّهُ إِلَهٌ (١)

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلَيْهِ ذَلِكَ الَّذِي قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ حَبْرٍ عِيسَى، {قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} أَي: يَخْتَلِفُ الْمُبْطَلُونَ وَالْمُحِقُّونَ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ وَكَفَرَ بِهِ (٢)

قوله تعالى: {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ} فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أن الحق هو الله تعالى. الثاني: عيسى وسماه حقاً لأنه جاء بالحق. الثالث: هو القول الذي قاله عيسى من قبل (٣)

والمرية: الشك (٤)

ما كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ثم نزهه- سبحانه- ذاته عن أن يكون له ولد فقال: ما كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ... أَي: ما يصح وما يستقيم وما يتصور في حقه- تعالى- أن يتخذ ولداً، لأنه منزّه عن ذلك، لأن الولد

(١) فتح القدير

(٢) ابن كثير

(٣) النكت والعيون للماوردي

(٤) الكشف

إنما يتخذ الفانون للامتداد، ويتخذ الضعفاء للنصرة، والله- تعالى- هو الباقي بقاء أبدى، وهو القوى القادر الذي لا يعجزه شيء (١)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِهَا: **مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وُلْدٍ زِيدَتْ فِيهِ لَفْظَةٌ «مِنْ» قَبْلَ الْمَفْعُولِ بِهِ لِتَأْكِيدِ الْعُمُومِ، وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ أَنَّ النِّكْرَةَ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ إِذَا زِيدَتْ قَبْلَهَا لَفْظَةٌ «مِنْ» لِتَوْكِيدِ الْعُمُومِ كَانَتْ نَصًّا صَرِيحًا فِي الْعُمُومِ (٢)**

وَقَوْلُهُ: **{وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} أَي: وَمِمَّا أَمَرَ عَيْسَى بِهِ قَوْمَهُ وَهُوَ فِي مَهْدِهِ، أَنْ أَخْبَرَهُمْ إِذْ ذَاكَ أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ وَرَبُّهُ، وَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ، فَقَالَ: {فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} (٣)**

وقوله **(هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)** يقول: هذا الذي أوصيتكم به، وأخبرتكم أن الله أمرني به هو الطريق المستقيم، الذي من سلكه نجا، ومن ركبته اهتدى، لأنه دين الله الذي أمر به أنبياءه (٤)

(١) التفسير الوسيط
(٢) أضواء البيان
(٣) ابن كثير
(٤) الطبري

وقفات تدبرية

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ

الذي قصّ عليك هذا القصص هو الله، وقوله الحق الذي لا باطل فيه

الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ

إذا تبين الحق فلا يليق لك المراء والجدال .. وخاصة إذا كان الحق من
الحق سبحانه

قولُ الله تعالى: وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُدْبِرَ النَّاسِ وَمُصْلِحَ
أُمُورِهِمْ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى

فهذه الآلهة والأرباب والأنداد والطواغيت إنما هي آلهة باطلة مكذوبة
مدعاة، والذي يستحق العبادة إنما هو الإله الحق جل جلاله

إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

كل ما تراه مستحيلاً فليس بصعب على الله

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ



الدرس الحادي عشر

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ
 (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ
 مُبِينٍ (٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ
 لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ
 (٤٠)

{فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ} بعد أن بين الله حقيقة عيسى اختلف الأحزاب أي: اختلف أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فقال اليهود في عيسى: إن عيسى ولد زنا -والعياذ بالله- واختلف النصارى في عيسى على ثلاثة طوائف:

قالت الطائفة الأولى: إن عيسى هو الله نزل من السماء إلى الأرض فأحيا من أحياء، وأمات من أمات، ثم صعد مرة ثانية إلى السماء، وهذه هي الطائفة التي تسمى بـ اليعقوبية.

الطائفة الثانية قالت: بأن عيسى ابن الله، وهذه الطائفة تسمى بـ النسطورية.

الطائفة الثالثة قالت: إن عيسى ثالث ثلاثة، فإله وعيسى إله ومريم إله، وهذه الطائفة تسمى بـ المنسية.

وهناك طائفة رابعة ولكنها تختلف تماماً عن هذه الطوائف كلها، قالت: إن عيسى هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء وروح من الله، وهذه الطائفة هم الموحدون من أمة إمام الموحدين وسيد الأولين والآخرين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، هذه هي الطائفة التي قالت بالحق



وعرفت الحق فقالت بأن الله واحد لا شريك له، واحد في ذاته، وصفاته، وأفعاله، لا يشبهه شيء، منزه عن كل نقص، ومنزه عن كل عيب، لا تدركه العقول، ولا تكيفه الأفهام، فكلما دار ببالك فإله بخلاف ذلك: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}

{فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ} تهديدٌ ووعيدٌ شديد من الله العزيز الحميد لكل من افتري على الله الكذب، لكل من زعم أن الله ولداً^(١)

وَقَوْلُهُ: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ} تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ، وَافْتَرَى، وَزَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا. وَلَكِنْ أَنْظَرَهُمْ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَجَّلَهُمْ حِلْمًا وَثِقَةً بِقُدْرَتِهِ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهُ الَّذِي لَا يَعْجَلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: "إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ" ثُمَّ قرأ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}^(٢)

وتأمل كيف قال: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا} بعد قوله {فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ} ولم يقل "فويل لهم" ليعود الضمير إلى الأحزاب، لأن من الأحزاب المختلفين، طائفة أصابت الصواب، ووافقت الحق، فقالت في عيسى: "إنه عبد الله ورسوله" فآمنوا به، واتبعوه، فهؤلاء مؤمنون، غير داخلين في هذا الوعيد، فلماذا خص الله بالوعيد الكافرين^(٣).

(١) دروس الشيخ محمد حسان

(٢) ابن كثير

(٣) تفسير السعدي

{أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ} أَي: مَا أَسْمَعَهُمْ وَأَبْصَرَ هُمْ {يَوْمَ يَأْتُونَنَا} يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ {لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ} أَي: فِي الدُّنْيَا {فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} أَي: لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ وَلَا يَعْقِلُونَ (١)

{أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} أَي: مَا أَسْمَعَهُمْ وَمَا أَبْصَرَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ!. فيقولون بكفرهم وشركهم وأقوالهم، ويقولون: {ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون} ففي القيامة، يستيقنون حقيقة ما هم عليه. {لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} وليس لهم عذر في هذا الضلال (٢)

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

والإنذار: الإعلام بالمخوف منه على وجه الترهيب والتحذير، وأشد ما يخوف به يوم القيامة.

والحسرة: أشد الندم على الأمر الذي فات وانقضى ولا يمكن تداركه (٣)

وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الظَّالِمِينَ , وَالْمُرَادُ بِيَوْمِ الْحَسْرَةِ يَوْمُ الْحِسَابِ، أُضِيفَ الْيَوْمُ إِلَى الْحَسْرَةِ لِكَثْرَةِ مَا يَحْدُثُ فِيهِ مِنْ تَحَسُّرِ الْمُجْرِمِينَ عَلَى مَا فَرَّطُوا فِيهِ مِنْ أَسْبَابِ النَّجَاةِ، فَكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ كَأَنَّهُ مِمَّا اخْتَصَّتْ بِهِ الْحَسْرَةُ، فَهُوَ يَوْمٌ حَسْرَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ وَإِنْ كَانَ يَوْمَ فَرَحٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الصَّالِحِينَ (٤)

(١) ابن كثير
(٢) السعدي
(٣) التفسير الوسيط
(٤) ابن عاشور

القول في تأويل قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا
يُرْجَعُونَ}

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: لا يحزنك تكذيب هؤلاء
المشركين لك يا محمد فيما أتيتهم به من الحق، فإن إينا مرجعهم
ومصيرهم ومصير جميع الخلق غيرهم، ونحن وارثو الأرض ومن عليها
من الناس، بفنائهم منها، وبقائها لا مالك لها غيرنا، ثم علينا جزاء كل
عامل منهم بعمله، عند مرجعه إينا، المحسن منهم بإحسانه، والمسيء
بإساءته^(١)

وفي قوله: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ} تأكيدٌ بحَرْفِ التَّوَكِيدِ (إِنَّ)؛ لدفع الشكِّ؛
لأنَّ المُشْرِكِينَ يُنْكِرُونَ الجِزَاءَ، فَهَمُّ يُنْكِرُونَ أَنَّ اللَّهَ يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ
عَلَيْهَا بهذا المعنى، وكذلك ضميرُ الفصلِ نَحْنُ يُفِيدُ التَّأَكِيدَ (٢)

(١) الطبري
(٢) ابن عاشور



وقفات تدبرية

قال تعالى : فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ قَوْلِهِ : فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ وَلَمْ يُقُلْ : (فويلٌ لهم) ليعود الضمير إلى الأحزاب؛ لأن من الأحزاب المُخْتَلِفِينَ طائفةً أصابت الصَّواب، ووافقت الحَقَّ، فقالت في عيسى: إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ

[لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين] الظالم لا يرى إلا نفسه ، ولا يسمع إلا صوته فمن حبس نفسه في غرفة مظلمة فكيف يتسلل النور إليه!!

{ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر } حين تُغلق صحف العمل، ويبدأ الحساب، تتحسر النفوس

“إنا نحن نرث الأرض ومن عليها ” أتيت إلى الدنيا وبيدك شهادة وفاتك .. ففيم طول الأمل

وإلينا يرجعون” كل الطرق التي يهربون فيها .. نهايتها بوابات تؤديهم إليه إذ قضي الأمر : الباب عندما لا يزال مفتوحاً بإمكانك الدخول في أي وقت .. لكن سيأتي وقت ويغلق تماماً وما من أحد سيفتحه لك

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا : أتيت إلى الدنيا وفي يدك شهادة وفاتك ... ففيم طول الأمل



الدرس الثاني عشر

وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا
أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا
أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا
(٤٣)

ذكر الله في هذه السورة جملة من الأنبياء، يأمر الله رسوله أن يذكرهم،
لأن في ذكرهم إظهار الثناء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم،
وفيه الحث على الإيمان بهم ومحبتهم، والاقتران بهم، فقال: {وَأذْكَرُ فِي
الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} جمع الله له بين الصديقية والنبوة.
فالصديق: كثير الصدق، فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدق
بكل ما أمر بالتصديق به^(١)

والمعنى :

لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى ضَلَالَ مَنْ أَثْبَتَ مَعْبُودًا غَيْرَ اللَّهِ حَيًّا عَاقِلًا فَاهِمًّا، وَهُمْ
النَّصَارَى؛ تَكَلَّمَ فِي ضَلَالٍ مَنْ أَثْبَتَ مَعْبُودًا غَيْرَ اللَّهِ جَمَادًا، وَهُمْ عَبْدَةُ
الأوثان ؛ فَذَكَرَ قِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- مَعَ أَبِيهِ^(٢)

وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ
أي: وائل -يا محمد- في القرآن خَيْرَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، عَلَى
قَوْمِكَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَيَدَّعُونَ كَذِبًا أَنَّهُمْ عَلَى مِلَّتِهِ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِتَقْلِيدِ

(١) السعدي
(٢) الدرر السنية (نقلا من تفسير الرازي بتصريف)

آبائهم، فهم يَعْبُدُونَ الأصنامَ والحالُ أنَّ أعظمَ آبائهم -إبراهيمَ- كان حنيفاً
مُسلماً ينهى أباه عن الشِّركِ، وعبادةِ الأصنامِ (١)

إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا شهدَ اللهُ لَهُ بِصِدْقِ مُعَامَلَتِهِ فِي قَوْلِهِ: وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي
وَفَى ,, وَمِنْ صِدْقِهِ فِي مُعَامَلَتِهِ رَبَّهُ: رِضَاهُ بِأَنْ يَذْبَحَ وَآلِدَهُ، وَشُرُوعُهُ
بِالْفِعْلِ فِي ذَلِكَ طَاعَةً لِرَبِّهِ ,, وَمِنْ صِدْقِهِ فِي مُعَامَلَتِهِ مَعَ رَبِّهِ: صَبْرُهُ عَلَى
الإلْقَاءِ فِي النَّارِ ,, وَمِنْ صِدْقِهِ فِي مُعَامَلَتِهِ رَبَّهُ: صَبْرُهُ عَلَى مُفَارَقَةِ الْأَهْلِ
وَالْوَطَنِ فِرَارًا بِدِينِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى
رَبِّي (٢)

وَأَفْتَتَحَ إِبْرَاهِيمُ خِطَابَهُ أَبَاهُ بِبِنْدَائِهِ مَعَ أَنَّ الْحَضْرَةَ مُغْنِيَةً عَنِ النَّدَاءِ قَصْدًا
لِإِخْضَارِ سَمْعِهِ وَذَهْنِهِ لِتَلْقَى مَا سَيُلْقِيهِ إِلَيْهِ (٣)

وقوله: **{لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا}** يبدو من
أسلوب إبراهيم عليه السلام مع أبيه أدبُ الدعوة، حيث قدّم الموعظة على
سبيل الاستفهام حتى لا يُشعر أباه بالنقص، أو يُظهر له أنه أعلم منه (٤)

قال ابن القيم : فابتدأ خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره ولم يسمه باسمه
ثم اخرج الكلام معه مخرج السؤال فقال: **{لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ
وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا}** ولم يقل لا تعبد ثم قال: **{يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ
الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ}** فلم يقل له جاهل لا علم عندك بل عدل عن هذه العبارة
إلى أطف عبارة تدل على هذا المعنى فقال: **{جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ}**

(١) المصدر السابق

(٢) أضواء البيان

(٣) التحرير والتنوير

(٤) الشعراوي

ثم قال: {فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا} ثم قال: {يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا} فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه وقال: (يمسك) فذكر لفظ المس الذي هو أطف من غيره ثم نكر العذاب ثم ذكر الرحمن ولم يقل الجبار ولا القهار فأى خطاب أطف وألين من هذا^(١)

لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا عاب الوثن من ثلاثة أوجه؛ أحدها: لا يسمع، وثانيها: لا يبصر. وثالثها: لا يغني عنك شيئاً يُكرّر نبي الله إبراهيم هذا النداء الحنون مرة أخرى، وكأنه يريد أن يثير في أبيه غريزة الحنان

وقوله: {إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ} أي: لا تظن يا أبي أنني متعالم عليك، أو أنني أفضل، أو أذكى منك، فهذا الكلام ليس من عندي، بل من أعلى مني ومنك، فلا غضاضة في سماعه والانصياع له، وهو رسالة كُفِّتُ بِإِبْلَاغِكَ إِيَّاهَا، وهذا الذي جاءني من العلم لم يأتِكَ أنت، وهذا اعتذار رقيق من خليل الله، فالمسألة ليست ذاتية^(٢) {فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا} أي: طَرِيقًا مُسْتَقِيمًا مُوصِلًا إِلَى نَيْلِ الْمَطْلُوبِ، وَالنَّجَاةِ مِنَ الْمَرْهُوبِ^(٣)

(١) بدائع الفوائد لابن القيم

(٢) الشعراوي

(٣) ابن كثير

وقفات تدبرية

يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا

أن يكون الحق بجانبك لا يبرر أن تتهجم بألفاظك .. حافظ على طيب
منطقك لتكون مؤثراً

يخاطب أباه بلطف شفاف، وإشفاق بالغ، وحرص أكيد؛ رغبة في هدايته
ونجاته

كرر لفظ: (يَا أَبَتِ) أربع مرات؛ ليستحث عند أبيه مشاعر الأبوة

صدر إبراهيم عليه السلام كل نصيحة لوالده بقوله: يا أبتِ! مذكراً والده
برابطة الأبوة التي هي من أقوى الروابط، ومن شأنها أن تجعل كلا
الطرفين حريصاً على مصلحة صاحبه.

قال بعض العلماء: إن الابن إذا دعا أباه بالأبوة أشعره بعلو المرتبة عليه.



الدرس الثالث عشر

يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا
 أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا
 (٤٥) قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ
 وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦)

إِعَادَةُ النَّدَاءِ لِرِيَادَةِ تَأْكِيدٍ مَا أَفَادَهُ النَّدَاءُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي (١)

يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ، لَا تُطِعْهُ فِيمَا يُزَيِّنُ لَكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ، إِنَّ
 الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا، عَاصِيًّا، كَانَ بِمَعْنَى الْحَالِ، أَيُّ هُوَ كَذَلِكَ (٢)
 وَقَوْلُهُ: {إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا} أَيُّ: مُخَالِفًا مُسْتَكْبِرًا عَنِ طَاعَةِ
 رَبِّهِ، فَطَرَدَهُ وَأَبْعَدَهُ، فَلَا تَتَّبِعْهُ تَصِرْ مِثْلَهُ (٣)
 وَذَكَرُ وَصْفِ عَصِيًّا الَّذِي هُوَ مِنْ صِيغِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْعَصِيَانِ مَعَ زِيَادَةِ فِعْلِ
 {كَانَ} لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ لَا يُفَارِقُ عَصِيَانِ رَبِّهِ (٤)

وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن، إشارة إلى أن المعاصي تمنع
 العبد من رحمة الله، وتعلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة أكبر الأسباب
 لنيل رحمته، ولهذا قال: {يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ}
 أَيُّ: بسبب إصرارك على الكفر، وتماديك في الطغيان {فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ
 وَلِيًّا} أَيُّ: في الدنيا والآخرة، فتنزل بمنزله الذميمة، وترتع في مراتعه

(١) التحرير والتنوير
 (٢) البغوي
 (٣) ابن كثير
 (٤) التحرير والتنوير

الوخيمة، فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه، بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنت إن أطعتني، اهتديت إلى صراط مستقيم، ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون وليا للشيطان^(١)

يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)

لَا جَرَمَ أَنَّهُ لَمَا قَرَّرَ لَهُ أَنَّ عِبَادَتَهُ الْأَصْنَامِ اتِّبَاعٌ لِأَمْرِ الشَّيْطَانِ عَصِي الرَّحْمَنِ انْتَقَلَ إِلَى تَوَقُّعِ حِرْمَانِهِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِأَنْ يَحُلَّ بِهِ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ، فَحَذَّرَهُ مِنْ عَاقِبَةِ أَنْ يَصِيرَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ الَّذِينَ لَا يَخْتَلِفُ الْبَشَرُ فِي مَدَمَّتِهِمْ وَسُوءِ عَاقِبَتِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ يَنْدَمُونَ فِيهِمْ عَنْ ضَلَالٍ بِمَالِ حَالِهِمْ.

وَلِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ أَصْلَ حُلُولِ الْعَذَابِ بِمَنْ يَحُلُّ بِهِ هُوَ الْحِرْمَانُ مِنَ الرَّحْمَةِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ عَبَّرَ عَنِ الْجَلَالَةِ بِوَصْفِ الرَّحْمَانِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ حُلُولَ الْعَذَابِ مِمَّنْ شَأْنُهُ أَنْ يَرْحَمَ إِنَّمَا يَكُونُ لِفِطْرَةِ جُرْمِهِ إِلَى حَدِّ أَنْ يُحْرِمَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ مَنْ شَأْنُهُ سَعَةُ الرَّحْمَةِ.

وَالْوَلِيُّ: الصَّاحِبُ وَالتَّابِعُ وَمَنْ حَالُهُمَا حَالٌ وَاحِدَةٌ وَأَمْرُهُمَا جَمِيعٌ فَكُنِّي بِالْوَلِيَّاتِ عَنِ الْمُقَارَنَةِ فِي الْمَصِيرِ^(٢)

التَّعْبِيرُ بِالْخَوْفِ الدَّالِّ عَلَى الظَّنِّ دُونَ الْقَطْعِ تَأْدُبٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنْ لَا يُثَبِّتَ أَمْرًا فِيمَا هُوَ مِنْ تَصَرُّفِ اللَّهِ، وَإِبْقَاءٌ لِلرَّجَاءِ فِي نَفْسِ أَبِيهِ لِيَنْظُرَ فِي التَّخَلُّصِ مِنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ بِالْإِقْلَاعِ عَنِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ^(٣)

(١) السعدي

(٢) التحرير والتنوير

(٣) التحرير والتنوير

قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا

وَقَدْ جَاءَ فِي جَوَابِهِ دَعْوُهُ ابْنِهِ بِمُنْتَهَى الْجَفَاءِ وَالْعُنْجُوهِيَّةِ بِعَكْسِ مَا فِي كَلَامِ
إِبْرَاهِيمَ مِنَ اللَّيْنِ وَالرِّقَّةِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَاسِي الْقَلْبِ، بَعِيدَ الْفَهْمِ،
شَدِيدَ التَّصَلُّبِ فِي الْكُفْرِ (١)

خَاطَبَهُ هَذَا الْخِطَابَ الْعَنيفَ، وَسَمَّاهُ بِاسْمِهِ وَلَمْ يَقُلْ لَهُ «يَا بُنَيَّ» فِي مُقَابَلَةِ
قَوْلِهِ لَهُ «يَا أَبَتِ» وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ أَنَّهُ رَاغِبٌ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، أَي: مُعْرِضٌ
عَنْهَا لَا يُرِيدُهَا (٢)

{لَئِن لَّمْ تَنْتَه} أي: عن شتم آلهتي، ودعوتي إلى عبادة الله {لَأَرْجُمَنَّكَ} أي:
قتلا بالحجارة {وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا} أي: لا تكلمني زمانا طويلا (٣)

(١) التحرير والتنوير

(٢) أضواء البيان

(٣) السعدي



وقفات تدبرية

يَا أَبْتَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ

أعظم درجات بر الوالدين دعوتهم إلى الله عز وجل

قال إبراهيم متلطفاً مع أبيه يا أبْتَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ

فجاء رد ابنه إسماعيل بنفس التلطف { يا ابْتِ افْعَلْ مَا تَأْمُرُ } بروا آباءكم
تبركم أبناءكم

كل ما يبدو لك من بلاء ومصائب هي في حقيقتها رحمة

إني أخاف

الناصحون الصادقون على الناس خائفون

يَا أَبْتَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

تأمل حتى في مشهد العذاب اسم الرحمن حاضر

وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا

علم أبو إبراهيم أن من أشد المواقف على الابن الصالح هجران أبيه ..
فهده بذلك

الدرس الرابع عشر

قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ
وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي
شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩)

لم يقابل فضاظة أبيه وتهديده بالغضب والضيق، بل قابل ذلك بسعة الصدر.
وجميل المنطق، حيث قال له: سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي
حَفِيًّا.

أى: لك منى- يا أبت- السلام الذي لا يخالطه جدال أو أذى، والوداع الذي
أقابل فيه إساءتك إلى بالإحسان إليك. وفضلا عن ذلك فإنى سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ
رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا أى: بارًا بي، كثير الإحسان إلي يقال: فلان حفى
بفلان حفاوة، إذا بالغ في إكرامه، واهتم بشأنه^(١)

(سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي) يقول: ولكنى سأسأل ربي أن يستر عليك ذنوبك بعفوه
إياك عن عقوبتك عليها (إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا) يقول: إن ربي عهدته بي لطيفا
يجيب دعائي إذا دعوته^(٢)

(١) التفسير الوسيط
(٢) الطبري



وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ
بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا

ثم حكى- سبحانه- بعد ذلك أن إبراهيم- عليه السلام- عند ما رأى تصميم
أبيه وقومه على الكفر والضلال، قرر اعتزالهم والابتعاد عنهم فقال-
تعالى:- **وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ
بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا.**

أى: وقال إبراهيم- أيضا- لأبيه: إني بجانب استغفاري لك، ودعوتي لك
بالهداية، فإنى سأعتزلك وأعتزل قومك، وأعتزل عبادة أصنامكم التي
تعبدونها من دون الله وأرتحل عنكم جميعا إلى أرض الله الواسعة، وأخص
ربي وخالقي بالعبادة والطاعة والدعاء، فقد عودنى- سبحانه- أن لا يخيب
دعائي وتضرعي إليه^(١)

وقوله: **(عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا)** قِيلَ: أَرَادَ بِهَذَا الدُّعَاءِ أَنْ يَهَبَ
اللَّهُ تَعَالَىٰ لَهُ أَهْلًا وَوَلَدًا يَتَّقَوْنَ بِهِمْ حَتَّىٰ لَا يَسْتَوْحِشَ بِالْإِعْتِزَالِ عَنْ قَوْمِهِ
(٢)

ثم بين- سبحانه- ما ترتب على اعتزال إبراهيم للشرك والمشركين فقال:
**فَلَمَّا اعْتَزَلَ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا
جَعَلْنَا نَبِيًّا. وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا، وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا.**

(١) التفسير الوسيط
(٢) القرطبي



أى: فحين اعتزل إبراهيم- عليه السلام- أباه وقومه وآلهتهم الباطلة. لم نضيعه، وإنما أكرمناه وتفضلنا عليه بأن وهبنا له إسحاق ويعقوب ليأنس بهما بعد أن فارق أباه وقومه^(١)

يُقُولُ: فَلَمَّا اعْتَزَلَ الْخَلِيلُ أَبَاهُ وَقَوْمَهُ فِي اللَّهِ، أَبَدَلَهُ اللَّهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَوَهَبَ لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، يَعْنِي ابْنَهُ وَابْنَ إِسْحَاقَ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً} [الأنبياء: ٧٢] ، وَقَالَ: {وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} [هود: ٧١] .

وَلَا خِلَافَ أَنَّ إِسْحَاقَ وَالِدَ يَعْقُوبَ، وَهُوَ نَصُّ الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ} [البقرة: ١٣٣] . وَلِهَذَا إِنَّمَا ذَكَرَ هَاهُنَا إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، أَي: جَعَلْنَا لَهُ نَسْلاً وَعَقَبًا أَنْبِيَاءَ، أَقَرَّ اللَّهُ بِهِمْ عَيْنَهُ فِي حَيَاتِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا} (٢)

(١) التفسير الوسيط
(٢) ابن كثير



وقفات تدبرية

لا بأس بإبلاغ أحد أنك تدعو له؛ تأليفاً وتودداً (قال سلام عليك سأستغفر
لك ربي إنه كان بي حفيماً)

إنه كان بي حفيماً) السعادة أن يحتفي الله بك.. قال السدي: (الحفي) الذي يهتم
بأمره

وأعتزلكم وما تدعون من دون الله [ليكن لك في هذه الحياة قرار شجاع
نابع من إيمانك

عسى ألا أكون (بدعاء) ربي (شقياً) "ما شقي أبداً من دعا الله.

فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله [

المكان الذي لا يعترف بحق ولا ينصف أهله فهجرهم خير .. ولا تكثر عليهم
التأسف فمفارقتهم مكسب

فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب"

اعتزال المعاصي وأهلها سبب لنيل نعمة الذرية. وصلاحهم

فلما (اعتزلهم) وما يعبدون من دون الله (وهبنا له) إسحاق و يعقوب..
" من تَرَكَ شيئاً لله... عوّضه الله خيراً منه

وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴿ صلاح الذرية هبة من الله لك ... تحتاج
إلى شكر.



فلما اعتزلهم و ما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق و يعقوب ” اعتزال
 المعصية ، و مكان المعصية ، و أهل المعصية ، - لأجل الله تعالى -
 يفتح للعبد باباً من الهبات و العطايا التي تسعده و تفرح قلبه و روحه

سورة مريم



الدرس الخامس عشر

وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) وَادْكُرْ
فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ
مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا
أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)

قَوْلُهُ: {وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا} :
{وَوَهَبْنَا لَهُمْ} أي: لإبراهيم وابنيه {مِنْ رَحْمَتِنَا} وهذا يشمل جميع ما وهب
الله لهم من الرحمة، من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة
المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون. {وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ
عَلِيًّا} وهذا أيضا من الرحمة التي وهبها لهم، لأن الله وعد كل محسن، أن
ينشر له ثناء صادقا بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله
الثناء الحسن الصادق غير الكاذب، العالي غير الخفي، فذكرهم ملا
الخافقين، والثناء عليهم ومحبتهم، امتلأت بها القلوب، وفاضت بها الألسنة،
فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة للمهتدين. ولا تزال أذكارهم في سائر
العصور، متجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل
العظيم^(١)

وَقَدْ رُتِّبَ جَزَاءُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَى نَبْذِهِ أَهْلَ الشِّرْكِ تَرْتِيْبًا بَدِيْعًا إِذْ جُوْزِيَ
بِنِعْمَةِ الدُّنْيَا وَهِيَ الْعَقْبُ الشَّرِيفُ، وَنِعْمَةُ الْآخِرَةِ وَهِيَ الرَّحْمَةُ، وَبِأَثَرِ
هَاتَيْنِ النِّعْمَتَيْنِ وَهُوَ لِسَانُ الصِّدْقِ، إِذْ لَا يُذَكَّرُ بِهِ إِلَّا مَنْ حَصَلَ النِّعْمَتَيْنِ^(٢)

(١) تفسير السعدي
(٢) التحرير والتنوير

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١)

قال ابن عاشور: أَفْضَتْ مُنَاسَبَةً ذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ وَيَعْقُوبَ إِلَى أَنْ يُذْكَرَ مُوسَى فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لِأَنَّهُ أَشْرَفَ نَبِيٍّ مِنْ دُرِّيَّةِ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ (١)

وقال السعدي أي: واذكر في هذا القرآن العظيم موسى بن عمران، على وجه التبجيل له والتعظيم، والتعريف بمقامه الكريم، وأخلاقه الكاملة، {إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا} قرئ بفتح اللام، على معنى أن الله تعالى اختاره واستخلصه، واصطفاه على العالمين. قال الإمام الشنقيطي: وَيَشْهَدُ لِهَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي (٢)

وقرئ بكسرها، على معنى أنه كان مخلص لله تعالى، في جميع أعماله، وأقواله، ونياته، فوصفه الإخلاص في جميع أحواله، والمعنيين متلازمان، فإن الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه، موجب لاستخلاصه، وأجل حالة يوصف بها العبد، الإخلاص منه، والاستخلاص من ربه. {وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة، فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل، وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع، دقه وجله. والنبوة تقتضي إحياء الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق (٣)

(١) التحرير والتنوير
(٢) أضواء البيان
(٣) تفسير السعدي

وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢)

وَنَادَيْنَاهُ مُوسَى مِنْ نَاحِيَةِ الْجَبَلِ، وَيَعْنِي بِالْأَيْمَنِ يَمِينِ مُوسَى؛ لِأَنَّ الْجَبَلَ لَا يَمِينَ لَهُ وَلَا شِمَالَ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ كَمَا يُقَالُ: قَامَ عَنْ يَمِينِ الْقِبْلَةِ وَعَنْ شِمَالِهَا، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ جَاءَتْ مُبَيَّنَةً فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى لَمَّا قَضَى الْأَجَلَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ صِهْرِهِ، وَسَارَ بِأَهْلِهِ رَاجِعًا مِنْ مَدْيَنَ إِلَى مِصْرَ أَنْسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا، فَذَهَبَ إِلَى تِلْكَ النَّارِ لِيَجِدَ عِنْدَهَا مَنْ يَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيقِ، وَلِيَأْتِيَ بِجَدْوَةٍ مِنْهَا لِيُوقِدَ بِهَا النَّارَ لِأَهْلِهِ لِيَصْطَلُوا بِهَا، فَنَادَاهُ اللَّهُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَشَفَعَهُ فِي أَخِيهِ هَارُونَ فَارْسَلَهُ مَعَهُ^(١)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: **وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا**، أَي: قَرَّبَ اللَّهُ مُوسَى فِي حَالِ كَوْنِهِ نَجِيًّا، أَي: مُنَاجِيًّا لِرَبِّهِ، وَإِثْنَانُ الْفَعِيلِ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ كَثِيرٌ كَالْقَعِيدِ وَالْجَلِيسِ، وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا، قَالَ: أُذْنِي حَتَّى سَمِعَ صَرِيْفَ الْقَلَمِ^(٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى: **وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا**، مَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ اللَّهَ وَهَبَ لِمُوسَى نُبُوَّةَ هَارُونَ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ سَأَلَهُ ذَلِكَ فَآتَاهُ سُؤْلَهُ، وَهَذَا الْمَعْنَى أَوْضَحَهُ تَعَالَى فِي آيَاتٍ أُخَرَ، كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ «طه» عَنْهُ: **وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْتَدُّ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي** إِلَى قَوْلِهِ: **قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى**^(٣)

(١) أضواء البيان

(٢) أضواء البيان

(٣) أضواء البيان

وقفات تدبرية

وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا

الذي يجعل لك الذكر الحسن بين الناس هو الله عندما يجد سريرتك مطابقة
لعلايتك عندها يضع محبتك بين عباده

إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا

أكثر شيء يرفع درجتك هو إخلاصك .. الإخلاص يؤهلك لكل خير
كن مخلصاً يطيب الله ذكرك

وَقَرَّبْنَا نَجِيًّا

إذا رأيت شخصاً يكثر من الدعاء ومناجاة الله .. فاعلم أنه قريب منه
وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا

الأخ رحمة من الله فاستمسك برحمة ربك



الدرس السادس عشر

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا
(٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا
(٥٥) وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ
مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)

ولما كان إسماعيل عليه الصلاة والسلام هو الذي ساعد أباه إبراهيم عليه السلام في بناء البيت الذي كان من الأفعال التي أبقى الله بها ذكره، وشهر أمره وكان موافقاً لموسى عليه السلام في ظهور آية الماء الذي به حياة كل شيء وإن كانت آية موسى عليه السلام انقضت بانقضائه، وآيته هو باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهي التي كانت سبب حياته وماؤها ببركته أفضل مياه الأرض^(١)

وَخَصَّهُ بِوَصْفِ صِدْقِ الْوَعْدِ لِأَنَّهُ اشْتَهَرَ بِهِ وَتَرَكَهُ خُلُقًا فِي ذُرِّيَّتِهِ.
وَأَعْظَمُ وَعْدٍ صَدَقَهُ وَعَدُّهُ إِيَّاهُ إِبْرَاهِيمَ بِأَنْ يَجِدَهُ صَابِرًا عَلَى الذَّبْحِ فَقَالَ
سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ^(٢)

قال الشعراوي : أما إسماعيل عليه السلام فكان صادق الوعد في أمر حياة أو موت، أمر يتعلق بنفسه، حين قال لأبيه: {يَأْبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}

(١) نظم الدرر
(٢) التحرير والتنوير



وَقَوْلُهُ: {وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} :
هَذَا أَيْضًا مِنَ الثَّنَاءِ الْجَمِيلِ، وَالصِّفَةِ الْحَمِيدَةِ، وَالْخَلَّةِ السَّديَّةِ ، حَيْثُ كَانَ
مُثَابِرًا عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ أَمْرًا بِهَا لِأَهْلِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ: {وَأْمُرْ
أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى}
[طه: ١٣٢] ، وَقَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا
وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ} أَي: مُرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ،
وَأَنهَوْهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا تَدْعُوهُمْ هَمَلًا فَتَأْكُلُهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (١)

وَأَذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) سُمِّيَ إِدْرِيسَ
لِكَثْرَةِ دَرَسِهِ الْكُتُبَ. وَكَانَ حَيَّاطًا وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ، وَأَوَّلُ مَنْ خَاطَ
الثِّيَابَ، وَلَبَسَ الْمَخِيضَ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلِهِ يَلْبَسُونَ الْجُلُودَ (٢)

قال الشيخ محمد حسان : هو من أجداد نوح عليه السلام، ولقد زعم بعض
المؤرخين أنه بعد نوح، ورد هذا الزعم الحافظ ابن كثير وغيره من
المؤرخين الثقات، وقال: إن إدريس من أجداد نوح عليهم جميعاً الصلاة
والسلام، وهو أول من خط بالقلم، وهو أول من لبس المخيط.
ورفعه الله مكاناً علياً، فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث مالك بن
صعصعة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: (لما عرج بي إلى
السماء أتيت على نبي الله إدريس في السماء الرابعة)، فقوله تعالى:
{وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا} أي: في السماء الرابعة (٣)

(١) ابن كثير
(٢) الطبري
(٣) دروس الشيخ محمد حسان

وقفات تدبرية

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ

ليكن الوفاء من شيمك .. فليس أجمل من الإنسان الصادق

وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ

مع أهمية الحوار والإقناع في بناء الأسرة .. إلا أنه لا قيام لأمر الله في

الأسرة إلا بأمر ونهي وصراحة حزم وإلزام

لا تتعب من أمر الأهل والأولاد على الصلاة فالأنبياء على ذلك..

ليس بينك وبين هذا الثناء الإلهي إلا كلمات تقولها للأهل قبل أن تذهب إلى

الصلاة

من أعظم القواعد التربوية .. {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} ,

{وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ} تفقد أهل بيتك وأبناءك

وَكَانَ يَأْمُرُ

صيغة المضارع تدل على استمراره في الأمر لإزالة الغفلة

وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ : لا تفوض هذه المهمة لغيرك , وقد مدح الله بها

الأنبياء

وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا .. كل شخص اجتمعت فيه خصال الخير :

الإخلاص , الاستقامة , البر , الصدق , الأمانة . فاعلم أن الله راضٍ عنه



الدرس السابع عشر

أَوْلَيْكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨)

وبعد أن قص الله تعالى في سورة مريم قصص زكريا ويحيى وعيسى ومريم وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس، أخبر الله سبحانه أن أولئك المذكورين في هذه السورة، وجميع الأنبياء: أنعم الله عليهم بنعمة النبوة والقرب منه، وعظم المنزلة لديه، واختارهم واجتباهم من بين عباده، وهداهم وأرشدهم ليكونوا المثل الأعلى للبشرية، والأسوة الحسنة للناس جميعا، في عبادة الله وطاعته، والتأسي بطريقتهم ومنهجهم وأخلاقهم^(١)

وَاسْمُ الْإِشَارَةِ عَائِدٌ إِلَى الْمَذْكُورِينَ مِنْ قَوْلِهِ ذَكَرَ رَحِمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا [مَرِيَم: ٢] إِلَى هُنَا. وَالْإِثْيَانُ بِهِ دُونَ الضَّمِيرِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِمْ جَدِيرُونَ بِمَا يُذَكَّرُ بَعْدَ اسْمِ الْإِشَارَةِ لِأَجْلِ مَا ذُكِرَ مَعَ الْمُشَارِ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَوْصَافِ^(٢)

قَالَ السُّدِّيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَالَّذِي عَنَى بِهِ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ: إِدْرِيسَ، وَالَّذِي عَنَى بِهِ مِنْ ذُرِّيَّةِ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ: إِبْرَاهِيمَ] (١) وَالَّذِي عَنَى بِهِ

(١) الوسيط للزحيلي
(٢) التحرير والتنوير

مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ: إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ وَإِسْمَاعِيلُ، وَالَّذِي عَنَى بِهِ مِنْ ذُرِّيَّةِ
إِسْرَائِيلَ: مُوسَى، وَهَارُونَ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ (١)

وقال الإمام الرازي :

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَيِ بِالنُّبُوَّةِ وَغَيْرِهَا مِمَّا تَقَدَّمَ « وَصَفُهُ وَأُولَئِكَ
إِشَارَةٌ إِلَى الْمَذْكُورِينَ/ فِي السُّورَةِ مِنْ لَدُنْ زَكَرِيَّا إِلَى إِدْرِيسَ، ثُمَّ جَمَعَهُمْ
فِي كَوْنِهِمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ثُمَّ خَصَّ بَعْضَهُمْ بِأَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَّةِ مَنْ حُمِلَ مَعَ نُوحٍ،
وَالَّذِي يَخْتَصُّ بِأَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ دُونَ مَنْ حُمِلَ مَعَ نُوحٍ هُوَ إِدْرِيسُ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، فَقَدْ كَانَ سَابِقًا عَلَى نُوحٍ عَلَى مَا ثَبَتَ فِي الْأَخْبَارِ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ
ذُرِّيَّةِ مَنْ حُمِلَ مَعَ نُوحٍ هُوَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَنَّهُ مِنْ وَلَدِ سَامِ بْنِ نُوحٍ
وَإِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ثُمَّ خَصَّ بَعْضَهُمْ بِأَنَّهُمْ مِنْ
وَلَدِ إِسْرَائِيلَ أَيِ يَعْقُوبَ وَهُمْ مُوسَى وَهَارُونَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى

... ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُمْ مِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا مُنْبَهًا بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ اخْتَصُّوا بِهَذِهِ
الْمَنَازِلِ لِهِدَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ، وَلِأَنَّهُ اخْتَارَهُمْ لِلرَّسَالَةِ ثُمَّ قَالَ: إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ
آيَاتُ الرَّحْمَنِ حَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا تُتْلَى عَلَيْهِمْ أَيِ عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ فَبَيَّنَّ
تَعَالَى أَنَّهُمْ مَعَ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَذَبَلُوا الْحَدَّ الَّذِي عِنْدَ تِلَاوَةِ آيَاتِ اللَّهِ يَخْرُونَ
سُجَّدًا وَبُكِيًّا خُضُوعًا وَخُشُوعًا وَحَذَرًا وَخَوْفًا (٢)

(١) ابن كثير
(٢) مفاتيح الغيب

إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ

وفي إضافة الآيات إلى اسمه {الرحمن} دلالة على أن آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة^(١)

وقوله: {حَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} لم يقل: سجدوا، بل سقطوا بوجوههم سريعاً إلى الأرض. وهذا الانفعال يُسمونه «انفعال نزوعي» ناتج عن الوجدان لا دَخَلَ للعقل فيه ولا للتفكير، فالساجد يستطيع أن يسجدَ بهدوء ونظام، أما الذي يخزُّ فلا يفكر في ذلك^(٢)

(١) تفسير السعدي
(٢) الشعراوي



وقفات تدبرية

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

تدبر ما تدعو به في صلاتك في فاتحة الكتاب .. اهدنا الصراط المستقيم
صراط الذين أنعمت عليهم

وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا

هل لك مكان بينهم .. وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

وضع الله طاعته وطاعة نبيه شرطاً لمرافقة تلك الصحبة الطيبة

إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ .. خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا

تأمل ربط بكاءهم باسم الرحمن خشعت قلوبهم وبكت عيونهم حين تذكروا
رحمته بهم

خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا

إذا كان الماء في الأرض حياة الزرع , فماء العين على الخد حياة القلب

خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا

تدبروا آياته فجمعهم الله في زمرة النبيين .. ابحث عن صحبة يكرهك الله
بالخير وأنت معهم ..



الدرس الثامن عشر

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا
(٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ
شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا
(٦١)

وهذا تنديد بطائفة من ذرياتهم لم يقتدوا بصالح أسلافهم وهم المعني بالخلف.

وَالْخَلْفُ - بِسُكُونِ اللَّامِ - عَقِبُ السُّوءِ، وَبِفَتْحِ اللَّامِ - عَقِبُ الْخَيْرِ (١)

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَزْبَ السُّعْدَاءِ، وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ،
مِنَ الْقَائِمِينَ بِحُدُودِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ، الْمُؤَدِّينَ فَرَائِضَ اللَّهِ، التَّارِكِينَ لِزَوَاجِرِهِ -
ذَكَرَ أَنَّهُ {خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ} أَي: فُرُونٌ أُخْرُ (٢)

مفارقة عجيبة بين هذين الفريقين، فريق إذا ما تليت عليه آيات الرحمن
خر ساجداً باكياً لله جل وعلا، وفريق اتبع هواه وجرى وراء شيطانه،
فاتبع الشهوات وأضاع الصلوات، ولا حول ولا قوة إلا بالله: {فَخَلَفَ مِنْ
بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ} (٣)

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الْمُرَادِ بِإِضَاعَتِهِمُ الصَّلَاةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُرَادُ
بِإِضَاعَتِهَا تَأْخِيرُهَا عَنِ وَقْتِهَا، وَمِمَّنْ يُرْوَى عَنْهُ هَذَا الْقَوْلُ ابْنُ مَسْعُودٍ،

(١) التحرير والتنوير

(٢) ابن كثير

(٣) دروس الشيخ محمد حسان

وَالنَّحَعِيُّ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَيَّمَةَ، وَمُجَاهِدٌ، وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَغَيْرُهُمْ،
وَقَالَ الْفَرَطِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ هُوَ الصَّحِيحُ^(١)

قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: هُوَ أَنْ لَا يُصَلِّيَ الظُّهْرَ حَتَّى يَأْتِيَ الْعَصْرَ، وَلَا
الْعَصْرَ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ^(٢)

{وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ} أَي الْمَعَاصِي وَشُرْبَ الْحَمْرِ، يَعْنِي أَتَرُوا شَهَوَاتِ
أَنْفُسِهِمْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ لَاءِ قَوْمٍ يَظْهَرُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ
يَنْزُرُونَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَسْوَاقِ وَالْأَرْقَةِ.

{فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا} قَالَ وَهْبٌ: "الْغَيُّ" نَهْرٌ فِي جَهَنَّمَ بَعِيدٌ قَعْرُهُ خَبِيثٌ
طَعْمُهُ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "الْغَيُّ" وَادٍ فِي جَهَنَّمَ وَإِنَّ أَوْدِيَةَ جَهَنَّمَ لَتَسْتَعِيدُ مِنْ حَرِّهِ
أَعْدًا لِلزَّانِي الْمَصِرِّ عَلَيْهِ وَلِشَارِبِ الْحَمْرِ الْمُدْمِنِ عَلَيْهَا وَلَاكِلِ الرَّبَا الَّذِي لَا
يَنْزِعُ عَنْهُ وَلَاهْلُ الْعُقُوقِ وَلِشَاهِدِ الزُّورِ.

وَقَالَ عَطَاءٌ: "الْغَيُّ": وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَسِيلُ فَيَحَا وَدَمًا.

وَقَالَ كَعْبٌ: هُوَ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ أَبْعَدُهَا قَعْرًا، وَأَشَدُّهَا حَرًّا فِي بئرٍ تُسَمَّى
"الْهِيمَ" كُلَّمَا خَبَثَ جَهَنَّمُ فَتَحَ اللَّهُ تِلْكَ الْبئرَ فَيُسَعِّرُ بِهَا جَهَنَّمَ^(٣)

وَالْغَيُّ: الضَّلَالُ، وَيُطْلَقُ عَلَى الشَّرِّ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ
جَزَاءَ غِيَّهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا [الفرقان: ٦٨] أَي
جَزَاءِ الْأَثَامِ^(٤)

(١) أضواء البيان
(٢) تفسير البغوي
(٣) تفسير البغوي
(٤) التحرير والتنوير

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا
(٦٠)

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذَا الْوَعِيدَ فِيمَنْ لَمْ يَتَّئِبْ، وَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ
صَالِحًا فَلَهُمُ الْجَنَّةُ (١)

وَقَوْلُهُ: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} ، أَي: إِذَا مَنْ رَجَعَ عَنِ
تَرْكِ الصَّلَاةِ وَاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ، وَيُحْسِنُ عَاقِبَتَهُ،
وَيَجْعَلُهُ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا
يُظْلَمُونَ شَيْئًا} وَذَلِكَ؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ تُجِبُّ مَا قَبْلَهَا، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ:
"التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ" (٢)

وَهَذَا الْإِسْتِثْنَاءُ هَاهُنَا كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ
إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخُذْ فِيهِ مَهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ
وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا

{وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا} أَي لَا يُنْقَصُونَ مِنْ جَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ شَيْئًا أَوْ لَا يَنْقُصُونَ
شَيْئًا مِنَ النِّقْصِ وَفِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى أَنْ كَفَرَهُمُ السَّابِقَ لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْقُصُ
أَجْرَهُمْ (٣)

(١) تفسير الرازي

(٢) ابن كثير

(٣) تفسير أبو السعود

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا

ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها، ليست كسائر الجنات، وإنما هي جنات عدن، أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها، ولا حول ولا زوال، وذلك لسعتها، وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور، والبهجة والحبور.

{الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ} أي: التي وعدّها الرحمن، أضافها إلى اسمه {الرَّحْمَنُ} لأن فيها من الرحمة والإحسان، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب [بشر]. وسماها تعالى رحمته، فقال: {وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} وأيضا ففي إضافتها إلى رحمته، ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية بقاء رحمته، التي هي أثرها وموجبها، والعباد في هذه الآية، المراد: عباد إلهيته، الذين عبدوه، والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفا لهم^(١)

ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ وَعْدَهُ مَأْتِيٌّ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يَأْتُونَهُ وَيَنَالُونَ مَا وَعَدُوا بِهِ ; لِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ، وَأَشَارَ لِهَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعٍ أُخَرَ، كَقَوْلِهِ: وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَأْتُونَ مَا وَعَدُوا بِهِ^(٢)

(١) تفسير السعدي
(٢) أضواء البيان

وقفات تدبرية

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ

إذا ضيع المرء صلاته تخطفته شهواته , ولا تغلب الشهوات إلا مع
إضاعة الصلوات

أشد ما تدم به الأجيال إضاعة الصلاة

قال ابن تيمية : القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها

ليس كثرة التخلف عن الصلوات مسألة نوم أو انشغال بل هي قلة توفيق
من الله بسبب هوان العبد على ربه

علاج الشهوات في حفظ الصلوات , فإذا ابتليت بالشهوات فاعلم أن الخلل
في الصلوات

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا

رفع الله في الآية مقام التائبين لقوله { فَأُولَئِكَ } وهو اسم إشارة يفيد العلو

التائب أعتق نفسه من أسر الهوى، وأطلق قلبه من سجن المعصية.

التائب يجد للطاعة حلاوة، وللعبادة راحة، وللإيمان طعمًا، وللإقبال لذة.

التائب يجد في قلبه حرقة، وفي وجهه أسي، وفي دمه أسراراً

جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ

عظمااء يصدقون ربهم ولم يروه , ولم يروا ما وعدهم



الدرس التاسع عشر

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢)
تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣) وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا
بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
نَسِيًّا (٦٤)

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا

قال ابن عاشور : إنفاؤه كناية عن انتفاء أقل المكدرات في الجنة، كما قال
تعالى: لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغْوًا ، وَكِنَايَةٌ عَنْ جَعْلِ مُجَازَاةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ
بِضِدِّ مَا كَانُوا يُلَاقُونَهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَدَى الْمُشْرِكِينَ وَلَعْوِهِمْ^(١)

إِلَّا سَلَامًا

أَيُّ لِكِنْ تَسْمَعُونَ سَلَامًا. قَالَ تَعَالَى: تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَقَالَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا
لَغْوًا وَلَا تَأْتِيَمًا إِلَّا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا^(٢) وَقَوْلُهُ: وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ
مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ

وَالرِّزْقُ: الطَّعَامُ.

وَجِيءَ بِالْجُمْلَةِ الْإِسْمِيَّةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى ثَبَاتِ ذَلِكَ وَدَوَامِهِ، فَيُفِيدُ التَّكْرُرَ
الْمُسْتَمِرَّ وَهُوَ أَحْصَى مِنَ التَّكْرُرِ الْمَقَادِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ وَأَكْثَرَ. وَتَقْدِيمُ
الظَّرْفِ لِإِلَهْتِمَامِ بِشَأْنِهِمْ، وَإِضَافَةُ رِزْقٍ إِلَى ضَمِيرِهِمْ لِزِيَادَةِ
الِإِخْتِصَاصِ^(٣)

(١) التحرير والتنوير

(٢) التحرير والتنوير

(٣) التحرير والتنوير

وقوله: {بُكَرَةٌ وَعَشِيًّا} فكيف يأتيهم رزقهم بُكْرَةً وَعَشِيًّا، وليس في الجنة وقت لا بُكْرَةٌ ولا عَشِيًّا، لا لَيْلٌ ولا نهار؟

نقول: إن الحق تبارك وتعالى يخاطبنا على قَدْرِ عقولنا، وما نعرف نحن من مقاييس في الدنيا، وإلا فنعيم الجنة دائم لا يرتبط بوقت، كما قال سبحانه: {أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} (١)

وَقَالَ الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} قَالَ: مَقَادِيرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ (٢)

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣)

أشار إلى علو رتبته وما هو سببها بقوله: {تلك الجنة} بأداة البعد لعلو قدرها (٣)

{التي نُورِثُ} أي نورثها {مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا} أي نُبْقِيهَا عليهم بتقواهم وامتعتهم بها كما نُبْقِي على الوارث مالَ مُورِثِهِ وامتعه به والورثة أقوى ما يستعمل في التملك والاستحقاق من الألفاظ من حيث إنها لا تُعَقَّبُ بفسخ ولا استرجاعٍ ولا إبطالٍ وقيل يُورِثُ المتقون من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا وأطاعوا زيادةً في كرامتهم (٤)

(١) الشعراوي
(٢) ابن كثير
(٣) نظم الدرر
(٤) تفسير أبي السعود

وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا
كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤)

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِجَبْرِيلَ: «أَلَا تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟»، قَالَ: فَزَلَّتْ: {وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا} (١)

وَقَوْلُهُ: {لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا} قِيلَ: الْمُرَادُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا: أَمْرُ الدُّنْيَا، وَمَا خَلْفَنَا: أَمْرُ الْآخِرَةِ، {وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ} مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ.

وَقِيلَ: {مَا بَيْنَ أَيْدِينَا} مَا نَسْتَقْبِلُ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ، {وَمَا خَلْفَنَا} أَي: مَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا، {وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ} أَي: مَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقَوْلُهُ: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} قَالَ مُجَاهِدٌ مَعْنَاهُ: مَا نَسِيكَ رَبُّكَ (٢)

(١) صحيح البخاري



وقفات تدبرية

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا

المجالس التي تخلو من اللغو _ وهي نادرة جداً .شبيهة بالجنة
الكلام الذي أحرق فؤادك وكسر خاطرك بالدنيا . لن تسمعه هناك في الجنة
ليس فيها كلمة جارحة واحدة ولا حرف يكدر خاطر

وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا

كم أرهقهم السعي للرزق وشغل فكرهم ولكنه أبداً لم يلهمهم عن طاعة ربهم
فجزاهم ربهم رزقاً بلا نصب

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا

سماع ما تكره , وهم الرزق أكبر منغصات الحياة ؛ أزالهم ربك من الجنة

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا

السلعة الغالية ثمنها غالي ... لا شيء يأتي بالهين .. خالف هوى نفسك
لتنال عزاها

وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ . أعظم الملائكة مطاطيء خضوعاً للجبار ..
وأنت تعصيه برأس مرفوع

وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ... اطمئن طلبك سينفذ

إن نسيت حقاً سلب ظلاماً منك فربك لا ينسى



لم ينس تلك الدمعة التي سقطت بين يديه , والدعوة التي رفعت إليه
نسبته أنت وحفظه من لا تخفى عليه خافية
سهم في قلب الظالم وبلسم في قلب المظلوم
بعض الدعوات والحاجات لا تأتي في لحظتها ولكن الله لا ينساها



الدرس العشرون

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى: (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) أَي رُبُّهُمَا وَخَالِقُهُمَا وَخَالِقُ مَا بَيْنَهُمَا وَمَالِكُهُمَا وَمَالِكُ مَا بَيْنَهُمَا^(١)

{رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} .

ثم علل إحاطة علمه، وعدم نسيانه، بأنه {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} فربوبيته للسماوات والأرض، وكونهما على أحسن نظام وأكمله، ليس فيه غفلة ولا إهمال، ولا سدى، ولا باطل، برهان قاطع على علمه الشامل، فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغلها بما ينفعك ويعود عليك طائله، وهو: عبادته وحده لا شريك له، {وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ} أي: اصبر نفسك عليها وجاهدها^(٢)

وقوله: (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)

دليل على أن العبادة ثقيلة، والمؤمن مأمور بالصبر عليها إذ اسم الصبر لا يكون إلا مقرونًا بالكراهة والصعوبة^(٣)

(١) القرطبي

(٢) تفسير السعدي

(٣) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام

التوحيد إفراد الله تعالى بما يختص به من ربوبية وألوهية والأسماء والصفات وقد اجتمعت الثلاثة في قوله تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} هذا توحدي الربوبية {فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ} هذا توحيد الإلوهية {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} هذا توحيد الأسماء والصفات^(١)

{هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} : قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هَلْ تَعْلَمُ لِلرَّبِّ مَثَلًا أَوْ شَبَهًا^(٢)
هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا يُسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى غَيْرَ اللَّهِ أَوْ يُقَالُ لَهُ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَهَلْ بِمَعْنَى لَا، أَي لَا تَعْلَمُ^(٣)

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَبِي بِنِ خَلْفٍ، وَجَدَ عِظَامًا بِالْيَمَةِ فَفَتَنَهَا بِيَدِهِ وَقَالَ: زَعَمَ مُحَمَّدٌ أَنَّا نُبْعَثُ بَعْدَ الْمَوْتِ؟

وَقَدْ بَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ الْكَافِرَ يَقُولُ مُنْكَرًا الْبُعْثَ: إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا زَعَمًا مِنْهُ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَحْيَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ مَقَالَتهُ هَذِهِ بِقَوْلِهِ: أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا، يَعْنِي: أَيَقُولُ الْإِنْسَانُ مَقَالَتهُ هَذِهِ فِي انْكَارِ الْبُعْثِ، وَلَا يَذْكُرُ أَنَّا أَوْجَدْنَاهُ الْإِبْجَادَ الْأَوَّلَ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا، بَلْ كَانَ عَدَمًا فَأَوْجَدْنَاهُ، وَإِبْجَادُنَا لَهُ الْمَرَّةَ الْأُولَى دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى قُدْرَتِنَا عَلَى إِبْجَادِهِ بِالْبُعْثِ مَرَّةً أُخْرَى^(٤)

(١) دروس الشيخ عبدالكريم الخضير

(٢) ابن كثير

(٣) القرطبي

(٤) أضواء البيان

أَوَّلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا (٦٧)

وفي قوله: {أَوَّلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ} دعوة للنظر، بالدليل العقلي، بالطف خطاب، وأن إنكار من أنكر ذلك، مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه، لم ينكر ذلك^(١)

{وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَّلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا} يستدل، تعالى، بالبداية على الإعادة، يعني أنه، تعالى خلق الإنسان ولم يك شيئا، أفلا يعيده وقد صار شيئا، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي بَدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الرُّوم: ٢٧] ، وفي الصحيح: "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي، وَأَذَانِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُؤْذِنَنِي، أَمَا تَكْذِبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ آخِرِهِ، وَأَمَا أَذَاهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: إِنَّ لِي وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ"^(٢)

(١) تفسير السعدي
(٢) ابن كثير



وقفات تدبرية

فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ طريقيك إلى الله شاق وطويل ويحتاج منك للصبر
الكثير

لتعلم جيداً بأن الطاعة لن تأتي بدون جهاد ومشقة

جاء الأمر بالإصطبار ثلاث مرات في القرآن { واصطبر لعبادته } ,
{ واصطبر عليها } , { فارتقبهم واصطبر } ... لعظم العبادة عموماً
والصلاة والدعوة خصوصاً

{ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا }

الله إسم لم يطلق إلا على الله

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا

هنالك جدال يدلك على غباء صاحبه بل وحتى عدم تفكيره بكلامه قبل
نطقه

أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا

ردود عقلية منطقية من أجل إيقاف الناس على حقيقتهم

فمن قدر على البدء قادر على الإعادة بلا شك



الدرس الحادي والعشرون

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨)
ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ
أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠)

ولما كان الإنكار للبعث يلزم منه الاحتقار، أتى بنون العظمة، استمر في هذا التحلي بهذا المظهر إلى آخر وصف هذا اليوم فقال: {لنحشرونهم} بعد البعث {والشياطين} الذين يضلونهم بجعل كل واحد منهم مع قرينه الذي أضله، في سلسلة {ثم لنحضرنهم} بعد طول الوقوف {حول جهنم} التي هم بها مكذبون، يحيطون بها لضيق رأسها وبعد قعرها، حال كونهم {جثيًّا} على الركب من هول المطلع وشدة الذل^(١)

والجثي جمع جاث من جثا إذا قعد على ركبتيه^(٢)

وَوَاوُ الْقَسَمِ لِتَحْقِيقِ الْوَعِيدِ. وَالْقَسَمُ بِالرَّبِّ مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِ وَهُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِدْمَاجٌ لِتَشْرِيفِ قَدْرِهِ. وَعَطْفٌ (الشَّيَاطِينَ) عَلَى ضَمِيرِ الْمُشْرِكِينَ لِقَصْدِ تَحْقِيرِهِمْ بِأَنََّّهُمْ يُحْشَرُونَ مَعَ أَحَقَرِ جِنْسٍ وَأَفْسَدِهِ، وَلِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الشَّيَاطِينَ هُمْ سَبَبُ ضَلَالِهِمُ الْمُوجِبُ لَهُمْ هَذِهِ

(١) نظم الدرر
(٢) تفسير أبي السعود



الْحَالَةَ، فَحَشَرَهُمْ مَعَ الشَّيَاطِينِ إِذْ نَادَى لَهُمْ بِأَنَّ مَصِيرَهُمْ هُوَ مَصِيرُ الشَّيَاطِينِ
(١)

ثُمَّ لَنَزَرْنَا عَنْ مَنِّ كُلِّ شَيْعَةٍ أَيْهَمُّ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا

والنزع: العزل والإخراج. يقال: نزع السلطان عامله، إذا عزله وأخرجه من عمله، والشيعية في الأصل: الجماعة من الناس يتعاونون فيما بينهم على أمر من الأمور (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى: أَيْهَمُّ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا، أَي: لَنَسْتَخْرِجَنَّ وَلَنُمَيِّزَنَّ مِنْ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ طَوَائِفِ الْعَيِّ وَالْفَسَادِ أَعْصَاهُمْ فَأَعْصَاهُمْ، وَأَعْتَاهُمْ فَأَعْتَاهُمْ، فَيُبْدَأُ بِتَعْذِيْبِهِ وَإِدْخَالِهِ النَّارَ عَلَى حَسَبِ مَرَاتِبِهِمْ فِي الْكُفْرِ، وَالْإِضْلَالِ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الرُّؤْسَاءَ الْقَادَةَ فِي الْكُفْرِ يُعَذَّبُونَ قَبْلَ غَيْرِهِمْ وَيُشَدَّدُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ لِضَلَالِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ (٣)

وَقَوْلُهُ: {ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا} ثُمَّ " هَاهُنَا لِعَطْفِ الْخَبَرِ عَلَى الْخَبَرِ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنَ الْعِبَادِ أَنْ يَصْلَىٰ بِنَارِ جَهَنَّمَ وَيَخْلُدَ فِيهَا، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ تَضْعِيفَ

الْعَذَابِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ: {قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ} (٤)

(١) التحرير والتنوير
(٢) التفسير الوسيط لطنطاوي
(٣) أضواء البيان
(٤) ابن كثير

وقفات تدبرية

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ

لأن أفعالهم كانت شيطانية ونهجهم شيطاني وإمامهم إبليس .. فلا عجب إن
حُشروا معهم فالمرء يحشر مع من أحب

{ جثيا } فيها ذل لأهل الشرك

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا

تهديد لأهل الضلال لأن الله ينتزع الأشد عتوا وكفرا
يريد أن يقدم في إدخال النار من هو أكبر جرما وأشد كفرا

ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا

في الدنيا إن عُذبت على عمل لم تقترفه فهذا لن يكون في الآخرة أبدا ..
فمحكمة الله عادلة

في الآية انتقال المشركين من عذاب إلى آخر ولهذا أتى بحرف التراخي



الدرس الثاني والعشرون

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي
الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثْيًا (٧٢) وَإِذَا تَنَالَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا
بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ
نَدِيًّا (٧٣)

وهذا خطاب لسائر الخلائق، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما
منهم من أحد، إلا سيرد النار، حكما حتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده،
فلا بد من نفوذه، ولا محيد عن وقوعه.

واختلف في معنى الورود، فقيل: ورودها، حضورها للخلائق كلهم، حتى
يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم بعد، ينجي الله المتقين. وقيل: ورودها،
دخولها، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما. وقيل: الورود، هو المرور
على الصراط، الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم،
فمنهم من يمر كالمح البصر، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد
الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يزحف
زحفا، ومنهم من يخطف فيلقى في النار، كل بحسب تقواه^(١)

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثْيًا
ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا أَي: ثم بعد دخول الناس جميعا النار، ننجي الذين
اتقوا، فنخرجهم منها دون أن يذوقوا حرها وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثْيًا أَي:
ونترك الظالمين في النار مخلدين فيها. جاثين على ركبهم، عاجزين عن
الحركة، من شدة ما يصيبهم من هولها وسعيرها.

(١) تفسير السعدي

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكمت لنا أقوال الجاحدين في شأن البعث والحساب، وردت عليهم ردا يبطل أقوالهم، كما أثبتت أن البعث حق، وأن الحساب حق، وأن الظالمين سيدخلون النار، وأن المؤمنين سينجيهم الله- تعالى- بفضلها منها^(١)

قوله (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذُرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا) إن الناس وردوا جهنم وهي سوداء مظلمة، فأما المؤمنون فأضاءت لهم حسناتهم، فأنجوا منها. وأما الكفار فأوبقتهم أعمالهم، واحتبسوا بذنوبهم^(٢)

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ حِينَ تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ ظَاهِرَةَ الدَّلَالَةِ بَيِّنَةَ الْحُجَّةِ وَاضِحَةَ الْبُرْهَانِ: أَنَّهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ ذَلِكَ، وَيُعْرِضُونَ وَيَقُولُونَ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا مُفْتَخِرِينَ عَلَيْهِمْ وَمُحْتَجِّينَ عَلَى صِحَّةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ الْبَاطِلِ بِأَنَّهُمْ: {خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا} [أَي: أَحْسَنُ مَنَازِلَ وَأَرْفَعُ دُورًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا] ، وَهُوَ مَجْمَعُ الرِّجَالِ لِلْحَدِيثِ، أَي: نَادِيهِمْ أَعْمَرُ وَأَكْثَرُ وَارِدًا وَطَارِقًا، يَعْنُونَ: فَكَيْفَ نَكُونُ وَنَحْنُ بِهِذِهِ الْمَثَابَةِ عَلَى بَاطِلٍ، وَأَوْلَيْكَ [الَّذِينَ هُمْ] مُخْتَفُونَ مُسْتَتْرُونَ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ وَنَحْوَهَا مِنَ الدُّورِ عَلَى الْحَقِّ^(٣)

وإذا تتلى على هؤلاء الكفار آياتنا بينات، أي: واضحات الدلالة على وحدانية الله وصدق رسله، توجب لمن سمعها صدق الإيمان وشدة الإيقان،

(١) التفسير الوسيط

(٢) الطبري

(٣) مفاتيح الغيب

قابلوها بصد ما يجب لها، واستهزءوا بها وبمن آمن بها، واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا، على أنهم خير من المؤمنين، فقالوا معارضين للحق: {أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ} أي: نحن والمؤمنون {خَيْرٌ مَقَامًا} أي: في الدنيا، من كثرة الأموال والأولاد، وتوفر الشهوات {وَأَحْسَنُ نَدِيًّا} أي مجلساً^(١)

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ يَعْنِي: المشركين آياتنا يعني: القرآن قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَعْنِي:

مشركي قريش لِلَّذِينَ آمَنُوا أَي: لفقراء المؤمنين أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا^(٢)

{قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا} يريد مشركي قريش النضر بن الحرث وَأَصْحَابَهُ. {لِلَّذِينَ آمَنُوا} يَعْنِي فُقَرَاءَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَتْ فِيهِمْ قَشَافَةٌ، وَفِي عَيْشِهِمْ حُسُونَةٌ وَفِي ثِيَابِهِمْ رِثَاءَةٌ وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَرْتَدُّونَ شَعْرَهُمْ وَيَدَهْنُونَ رُؤُوسَهُمْ وَيَلْبَسُونَ خَيْرَ ثِيَابِهِمْ، فَقَالُوا لِلْمُؤْمِنِينَ {أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا}^(٣)

(١) تفسير السعدي

(٢) زاد المسير

(٣) القرطبي

وقفات تدبرية

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا

كان عبد الله بن راحة واضعاً رأسه في حجر امرأته؛ فبكى فبكت امرأته، فقال: ما يبكيك؟ فقالت: رأيتك تبكي فبكيت، قال: إني ذكرت قول الله عز وجل: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا} فلا أدري أنجو منها أم لا

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا

- * لما كانت التقوى سبب النجاة من أعظم هم وأشد كرب (جهنم)..فهي من باب أولى المنجية من كل هموم الدنيا وكروبها
- * فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم
- * تقوى الله نجاة لك في حياتك , وحينما تلقى ربك بعد مماتك
- * التقوى التي تنجي العبد من جهنم ... عندما يمر من فوقها ... ألا تنجيه من عواصف النكبات حين يمر من تحتها
- * وَنَذَرُ .. تدل على هوانهم واحتقارهم لأن لفظ ونذر يقتضي الإهمال

قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا

عندما تكون الدنيا معيار التفاضل ... يكون الكفر هو الناطق الرسمي باسمها



الدرس الثالث والعشرون

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِيًّا (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ
فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا
الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا
(٧٥)

افتخروا عليهم بالمساكن والمجالس، فأجابهم الله تعالى فقال: وَكَمْ أَهْلَكْنَا
قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ^(١)

إِنَّ مَنْ كَانَ أَعْظَمَ نِعْمَةً مِنْكُمْ فِي الدُّنْيَا قَدْ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ وَأَبَادَهُمْ^(٢)

{أثاناً} أي أمتعة {ورياً} أي منظرأ، فكأنه قيل: فما يقال لهم؟ فقال: {قل} أي لهم رداً عليهم وقطعاً لمعاذيرهم وهتكاً لشبههم: هذا الذي افتخرتم به لا يدل على حسن الحال في الآخرة، بل على عكس ذلك^(٣)

{قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ
إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا} .

لما ذكر دليلهم الباطل، الدال على شدة عنادهم، وقوة ضلالهم، أخبر هنا، أن من كان في الضلالة، بأن رضيها لنفسه، وسعى فيها، فإن الله يمدده منها، ويزيده فيها حبا، عقوبة له على اختيارها على الهدى^(٤)

(١) زاد المسير
(٢) الرازي
(٣) نظم الدرر
(٤) التفسير الوسيط

{حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا} أي: القائلون: {أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا} {مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ} بقتل أو غيره {وَأِمَّا السَّاعَةَ} التي هي باب الجزاء على الأعمال {فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا} أي: فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضمحلة، ويتيقنون أنهم أهل الشر، {وَأَضْعَفُ جُنْدًا} ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئاً، لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا، فيعملون غير عملهم الأول^(١)

، ومن كان يخبط في الدنيا على هواه، فإن الله تعالى جعل جزاءه أن يتركه في ضلاله وطغيانه، ويمهله فيما هو عليه، ويمده ويستدرجه بالنعيم، ليزداد إثماً، حتى يلقي ربه وينقضي أجله^(٢)

فِي قَوْلِهِ: فَلْيَمْدُدْ، يُرَادُ بِهَا الْإِخْبَارُ عَنْ سُنَّةِ اللَّهِ فِي الضَّالِّينَ، وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ أَجْرَى الْعَادَةِ بِأَنَّهُ يُمَهِّلُ الضَّالَّ وَيُمْلِي لَهُ فَيَسْتَدْرِجُهُ بِذَلِكَ حَتَّى يَرَى مَا يُوعِدُهُ، وَهُوَ فِي غَفْلَةٍ وَكُفْرٍ وَضَلَالٍ^(٣)

(١) السعدي
(٢) السعدي
(٣) أضواء البيان

وقفات تدبرية

وَكَمْ أَهْلَكْنَا

كم الخبرية تفيد الكثرة , فالهلاك واقع على أهل الترف

فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا

فيها كرم الله وهو الذي يمد أهل الضلال بالأرزاق

فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا

قوله فسيعلمون . يدل على قرب قيام الساعة لأن السين حرف مستقبل

قريب

فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا

في الحياة قد يصيبك الإحباط من الموازين المقلوبة للشر يرتدي رداء
الخير .. لكن غداً سيكشف الله الكل على حقيقته

الدرس الرابع والعشرون

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ
ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا
وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨)

{وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا
وَخَيْرٌ مَرَدًّا} .

لما ذكر أنه يمد للظالمين في ضلالهم، ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من
فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح. فكل من
سلك طريقا في العلم والإيمان والعمل الصالح زاده الله منه، وسهله عليه
ويسره له، ووهب له أمورا أخر، لا تدخل تحت كسبه^(١)

الْمَعْنَى: أَنْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ زَادَهُ اللَّهُ ضَلَالَةً، وَمَنْ اهْتَدَى زَادَهُ اللَّهُ
هُدًى^(٢)

{وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ} أي: الأعمال الباقية، التي لا تنقطع إذا انقطع
غيرها، ولا تضمحل، هي الصالحات منها، من صلاة، وزكاة، وصوم،
وحج، وعمرة، وقراءة، وتسبيح، وتكبير، وتحميد، وتهليل، وإحسان إلى
المخلوقين، وأعمال قلبية وبدنية. فهذه الأعمال {خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ
مَرَدًّا} أي: خير عند الله، ثوابها وأجرها، وكثير للعاملين نفعها وردها،
وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل في غير باب، فإنه ما ثم غير الباقيات

(١) السعدي
(٢) أضواء البيان

الصالحات، عمل ينفع، ولا يبقى لصاحبه ثوابه ولا ينجع، ومناسبة ذكر الباقيات الصالحات-والله أعلم- أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد، وحسن المقام ونحو ذلك، علامة لحسن حال صاحبها، أخبر هنا أن الأمر، ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة ومنشور الفلاح، هو العمل بما يحبه الله ويرضاه^(١)

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا

عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَمِعْتُ حَبَّابًا، قَالَ: جِئْتُ الْعَاصَ بْنَ وَائِلِ السَّهْمِيِّ أَنْقَاضَهُ حَقًّا لِي عِنْدَهُ، فَقَالَ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: «لَا حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ» قَالَ ابْنُ حَجْرٍ فِي الْفَتْحِ: قَوْلُهُ حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ مَفْهُومُهُ أَنَّهُ يَكْفُرُ حِينَئِذٍ لِكِنَّهُ لَمْ يُرِدْ ذَلِكَ لِأَنَّ الْكُفْرَ حِينَئِذٍ لَا يُتَصَوَّرُ فَكَأَنَّهُ قَالَ لَا أَكْفُرُ أَبَدًا وَالنُّكْتَةُ فِي تَعْيِيرِهِ بِالْبَعْثِ تَعْيِيرُ الْعَاصِ بِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، قَالَ: وَإِنِّي لَمَيِّتٌ ثُمَّ مَبْعُوثٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّ لِي هُنَاكَ مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَهُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ: لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا} (٢)

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ مَرَادَهُ بِقَوْلِهِ: لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا الْإِسْتِهْزَاءَ بِالَّذِينَ وَبِحَبَابِ بْنِ الْأَرْتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ زَعَمَ أَنَّهُ يُؤْتَى مَالًا وَوَلَدًا قِيَاسًا مِنْهُ لِلْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا، كَمَا بَيَّنَّا الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى (٣)

(١) السعدي
(٢) صحيح البخاري
(٣) أضواء البيان

أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا

قَوْلُهُ تَعَالَى: أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا كَلًّا.
اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ رَدَّ عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَايِلِ
السَّهْمِيِّ^(١)

أَوْ قَدْ بَلَغَ مِنْ عِظَمِ شَأْنِهِ أَنَّهُ ارْتَقَى إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ الَّذِي تَوَحَّدَ بِهِ الْوَاحِدُ
الْفَهَّارُ، وَالْمَعْنَى أَنَّ الَّذِي ادَّعَى أَنَّهُ يَكُونُ حَاصِلًا لَهُ لَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ إِلَّا
بِأَحَدِ هَدْيَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، إِمَّا عِلْمِ الْغَيْبِ وَإِمَّا عَهْدٍ مِنْ عَالِمِ الْغَيْبِ فَبِأَيِّهِمَا
تَوَصَّلَ إِلَيْهِ؟^(٢)

(١) أضواء البيان
(٢) مفاتيح الغيب



وقفات تدبرية

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى

كلما اهتديت ارتقيت وعد الله بالزيادة في الخير ثلاثاً

المهتدين { ويزيد الله الذين اهتدوا هدى } والشاكرين { ولئن شكرتم لأزيدنكم } والمحسنين { سنزيد المحسنين }

تدل الآية على طلب الزيادة في الهداية لأن يزيد فعل مضارع يدل على الاستمرار

زادوا هدى فتكلموا بالباقيات الصالحات

وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا

قدم الباقيات على الصالحات تشويقاً للمسارعة في فعلها

دلت الآية على أن للصالحات مردود على فاعلها لقوله { وَخَيْرٌ مَرَدًّا }

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا

من جهل الإنسان تأليه على الله لقوله { لأوتين } بلام ونون التوكيد

أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا

الكثير ينسى حدوده البشرية .. ويتناول على ما اختصه الله لنفسه بل ويدخل حتى في نوايا الناس

{ أَطَّلَعَ } تفيد التكلف لوجود الشدة , فالمنكر للبعث متكلف مالا علم له به



الدرس الخامس والعشرون

كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ
وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١)
كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)

{كَلَّا} أي: ليس الأمر كما زعم، فليس للقائل اطلاع على الغيب، لأنه كافر، ليس عنده من علم الرسائل شيء، ولا اتخذ عند الرحمن عهدا، لكفره وعدم إيمانه، ولكنه يستحق ضد ما تقوله، وأن قوله مكتوب، محفوظ، ليجازى عليه ويعاقب، ولهذا قال: {سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا} أي: نزيده من أنواع العقوبات، كما ازداد من الغي والضلال. {وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ} أي: نرثه ماله وولده، فينتقل من الدنيا فردا، بلا مال ولا أهل ولا أنصار ولا أعوان {وَيَأْتِينَا فَرْدًا} فيرى من وخيم العذاب وأليم العقاب، ما هو جزاء أمثاله من الظالمين^(١)

{وَيَأْتِينَا فَرْدًا} يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلَا مَالٍ وَلَا وُلْدٍ^(٢)

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا

وَالاتِّخَاذُ: جَعَلَ الشَّخْصَ الشَّيْءَ لِنَفْسِهِ، فَجَعَلَ الاتِّخَاذُ هُنَا الاِعْتِقَادَ وَالْعِبَادَةَ. وَفِي فِعْلِ الاتِّخَاذِ اِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ عَقِيدَتَهُمْ فِي تِلْكَ الْآلِهَةِ شَيْءٌ مُصْطَلَحٌ عَلَيْهِ مُخْتَلَقٌ لَمْ يَأْمُرِ اللَّهُ بِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ: قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ^(٣)

(١) تفسير السعدي

(٢) البغوي

(٣) التحرير والتنوير

لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا وَأَنَّهُمْ عَبَدُوهُمْ لِأَجَلٍ أَن يَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا، أَي: أَنْصَارًا
وَشَفَعَاءَ يُنْقِدُونَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا

وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: كَلَّا، زَجْرٌ وَرَدْعٌ لَهُمْ عَنْ ذَلِكَ الظَّنِّ الْفَاسِدِ
الْبَاطِلِ، أَي: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، لَا تَكُونُ الْمَعْبُودَاتُ الَّتِي عَبَدْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
عِزًّا لَكُمْ، بَلْ تَكُونُ بِعَكْسِ ذَلِكَ، فَتَكُونُ عَلَيْكُمْ ضِدًّا، أَي: أَعْوَانًا عَلَيْكُمْ فِي
خُصُومَتِكُمْ وَتَكْذِيبِكُمْ وَالتَّبَرُّؤِ مِنْكُمْ، وَأَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ فِي الْآيَةِ تَدُورُ حَوْلَ هَذَا
الَّذِي ذَكَرْنَا، كَقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ضِدًّا أَي: أَعْوَانًا، وَقَوْلِ الضَّحَّاكِ: ضِدًّا،
أَي: أَعْدَاءً، وَقَوْلِ قَتَادَةَ: ضِدًّا، أَي: فُرْنَاءُ فِي النَّارِ يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا (١)

هذه حال الكفار مع الأصنام

{سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ} أَي تَجَحَّدُ الْأَصْنَامُ وَالْإِلَهَةُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِبَادَةَ
المشركين ويتبرؤون منهم كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى "تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ".

{وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} أَي أَعْدَاءٌ لَهُمْ وَكَانُوا أَوْلِيَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا (٢)

(١) أضواء البيان
(٢)

وقفات تدبرية

كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا

{كَلَّا} ردع وزجر يراد من ورائها التشويق لما بعدها

{سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ} خلف لسانك هلاكك . فكل حرف مسجل عليك .. فلا

شيء يوردك المهالك كلسانك

{وَقَالَ لَأَوْتَيْنِ مَالًا وَوَلَدًا} فقال ربه {وَوَرِثُهُ مَا يَقُولُ}

لا تغتر بمال ولا بولد فالله يرث الأرض وما عليها

ما جمعه في الدنيا لن يغنيك ولن يشفع لك . أنت بمفردك أمام ربك

وَيَأْتِينَا فَرْدًا

كل من تجاملهم لن يأتوا معك ... أنت وحدك بين يديه

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا

من علق رجاءه بغير الله خاب ومن استنصر بغير الله خذل

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا

ألا إن كل شيء ما خلا الله باطل . فكل محبة لم تكن لله فمصيرها البغض

والعداوة



الدرس السادس والعشرون

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا
تَعَجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ
وَفَدًّا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ
الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧)

قَوْلُهُ: أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ الْآيَةَ ، أَي: سَلَطْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ وَقَيَّضْنَاهُمْ لَهُمْ،
وَقَوْلُهُ: تَؤُزُّهُمْ أَزًّا: الْأَرْزُ وَالْهَزُّ وَالِاسْتِفْزَارُ بِمَعْنَى، وَمَعْنَاهَا التَّهْيِيجُ وَشِدَّةُ
الْإِزْعَاجِ، فَقَوْلُهُ: تَؤُزُّهُمْ أَزًّا، أَي: تَهَيَّجُهُمْ وَتُزْعِجُهُمْ إِلَى الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي.
وَأَقْوَالُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْآيَةِ رَاجِعَةٌ إِلَى مَا ذَكَرْنَا: كَقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ تَؤُزُّهُمْ
أَزًّا، أَي: تُغْرِيهِمْ إِغْرَاءً^(١)

كيف يخاطب الحق تبارك وتعالى رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه
المسألة بقوله: {أَلَمْ تَرَ} [مريم: ٨٣] وهي مسألة لا يراها الإنسان؟
نقول: {أَلَمْ تَرَ} [مريم: ٨٣] بمعنى ألم تعلم؟ فعدّل عن العلم إلى الرؤيا، كما
في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} والنبي صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَرِ هذه الحادثة، فكيف يخاطبه ربه عنها بقوله: {أَلَمْ تَرَ}
ذلك، ليدلك على أن إخبار الله لك أصحّ من إخبار عينك لك؛ لأن رؤية
العين بما تخذعك، أمّا إعلام الله فهو صادق لا يخدعك أبداً. فعلمك من
إخبار الله لك أولى وأوثق من علمك بحواسك^(٢)

(١) أضواء البيان
(٢) الشعراوي

قَوْلُهُ تَعَالَى: فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا.

قَوْلُهُ: فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ، أَي: لَا تَسْتَعْجِلْ وَفُوعَ الْعَذَابِ بِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ حَدَدَ لَهُ أَجَلًا مُعَيَّنًا مَعْدُودًا، فَإِذَا انْتَهَى ذَلِكَ الْأَجَلُ جَاءَهُمُ الْعَذَابُ، فَقَوْلُهُ: إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا، أَي: نَعُدُّ الْأَعْوَامَ وَالشُّهُورَ وَالْأَيَّامَ الَّتِي دُونَ وَقْتِ هَلَاكِهِمْ، فَإِذَا جَاءَ الْوَقْتُ الْمَحْدَدُ لِذَلِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ^(١)

وَرُوِيَ أَنَّ الْمَأْمُونَ قَرَأَ هَذِهِ السُّورَةَ الْكَرِيمَةَ فَمَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ، فَأَشَارَ إِلَى ابْنِ السَّمَّكِ أَنْ يَعْظُمَهُ، فَقَالَ: إِذَا كَانَتِ الْأَنْفَاسُ بِالْعَدَدِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مَدَدٌ، فَمَا أَسْرَعَ مَا تَنَفَّدَ

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَهَا بَكَى، وَقَالَ: أَخِرُ الْعَدَدِ خُرُوجِ نَفْسِكَ، أَخِرُ الْعَدَدِ: فِرَاقُ أَهْلِكَ، أَخِرُ الْعَدَدِ: دُخُولُ قَبْرِكَ»^(٢)

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا

جُمُهُورُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: وَفْدًا ، أَي: رُكْبَانًا^(٣)

وَأَسْتَحْلِفُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَتَّصِرَ هَذَا الْمَشْهُدُ: أَنَّاسٌ يَمْشُونَ فِي أَرْضِ الْمُحْشَرِ، وَأَنَّاسٌ يَرْكَبُونَ، وَأَنَّاسٌ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ، مَنْظَرٌ بِشَعْرِ رَهَيْبٍ لَا يَسْتَطِيعُ بَلِيغٌ فَصِيحٌ أَنْ يَعْبرَ عَنْهُ! أَنَّاسٌ يَمْشُونَ عَلَى الْأَقْدَامِ، وَأَنَّاسٌ يَرْكَبُونَ، مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَرْكَبُونَ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْعَصِيبِ الرَّهَيْبِ؟! اسْمِعْ لِرَبِّكَ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ سُبْحَانَهُ: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} وَفْدًا: أَي: رُكْبَانًا، لَا يَمْشِي الْمُنْقَوُونَ فِي أَرْضِ الْمُحْشَرِ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، بَلْ يَهْيِيءُ اللَّهُ

(١) أضواء البيان

(٢) أضواء البيان

(٣) أضواء البيان

لهم ركائب من دواب الآخرة، عليها سُرج من ذهب عُلِّمَاءٌ يَقُولُ: هُمْ
رُكْبَانٌ عَلَى نَجَائِبٍ مِنْ نُورٍ مِنْ مَرَائِبِ الدَّارِ الآخِرَةِ (١)

وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا

عن ابن عباس، قوله (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا) يقول: عطاشا (٢)

وأما المجرمون، فإنهم يساقون إلى جهنم وريداً، أي: عطاشاً، وهذا أبشع ما
يكون من الحالات، سوقهم على وجه النذل والصغار إلى أعظم سجن
وأفزع عقوبة، وهو جهنم، في حال ظمئهم ونصبهم يستغيثون فلا يغيثون،
ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم، ولهذا قال: {لَا

يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ} (٣)

لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا

أي: ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى {قُلْ لِلَّهِ
الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا} وقد أخبر أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين، لأنهم لم يتخذوا
عنده عهداً بالإيمان به وبرسله، وإلا فمن اتخذ عنده عهداً فأمن به وبرسله
واتبعهم، فإنه ممن ارتضاه الله، وتحصل له الشفاعة كما قال تعالى: {وَلَا
يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى} وسمى الله الإيمان به واتباع رسله عهداً، لأنه
عهد في كتبه وعلى السنة رسله، بالجزاء الجميل لمن اتبعهم (٤)

(١) دروس الشيخ محمد حسان
(٢) الطبري
(٣) السعدي
(٤) السعدي

وقفات تدبرية

أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزًّا

عبر له عن القصة بصيغة الرؤية . لأن المتكلم هو الله
الطيور على أشكالها تقع .. فالطيب ينجذب إليه الطيب والخبيث يأتيه من
هو على شاكلته

فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا

نوقن بهلاك الظالم .. مشكلتنا في الإستعجال بهلاكه .. فقط ترقب كيف
ستكون نهاية الظالم

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا

ما أجمله من وصف وهم يُزَفُّون إلى جنة الرحمن وفدا ركبانا ... فالمتقون
لا يمشون على أدامهم في أرض المحشر
ذكر اسم الرحمن في الآية تنبيهاً أنهم نالوا ذلك برحمة الله

وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا

لفظ ونسوق يدل على تمنع من الكافرين في المشي لأنهم يرون العذاب



الدرس السابع والعشرون

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ
السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ
دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)

لَمَّا قَرَّرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الشَّرِيفَةِ عُبُودِيَّةَ عَيْسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَذَكَرَ
خَلْقَهُ مِنْ مَرْيَمَ بِلَا أَبِي، شَرَعَ فِي مَقَامِ الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا -
تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنِ ذَلِكَ غُلُوبًا كَبِيرًا- فَقَالَ: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا *
لَقَدْ جِئْتُمْ} أَي: فِي قَوْلِكُمْ هَذَا، {شَيْئًا إِدًّا}

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَمَالِكٌ: أَي عَظِيمًا^(١)

وَالِإِدِّ: الْمُنْتَاهِي فِي النُّكْرِ وَالْفِطَاعَةِ، وَهُوَ الْأَمْرُ الْمُسْتَبْشَعُ^(٢)

هُمُ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ الرَّحْمَنِ وَلَا يُقِرُّونَ بِهِ، وَقَدْ أَنْكَرُوهُ كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ:
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ، فَكَيْفَ قَالَ هُنَا وَقَالُوا
اتخذ الرحمن ولدا؟

فَهُمْ إِنَّمَا يَقُولُونَ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا كَمَا حُكِيَ عَنْهُمْ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْهَا آيَةُ
سُورَةِ الْكَهْفِ. فَذِكْرُ الرَّحْمَنِ هُنَا وَضَعٌ لِلْمُرَادِفِ فِي مَوْضِعِ مُرَادِفِهِ، فَذِكْرُ
اسْمِ الرَّحْمَنِ لِقَصْدِ إِغَاظَتِهِمْ بِذِكْرِ اسْمِ أَنْكَرُوهُ^(٣)

(١) ابن كثير
(٢) الشعراوي
(٣) التحرير والتنوير

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ} أَي: يَنْشَقُّنَ فَرَقًا مِنْ عَظْمَةِ اللَّهِ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: {وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ} أَي: غَضَبًا لِلَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ.

{وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا} قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَدَمًا^(١)

وهذا تقييح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين، الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولدا، كقول النصارى: المسيح ابن الله، واليهود: عزيز ابن الله، والمشركين: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

{لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا} أَي: عَظِيمًا وَخِيمًا.

من عظيم أمره أنه {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ} على عظمتها وصلابتها {يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ} أَي: من هذا القول {وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ} منه، أَي: تتصدع وتنفطر {وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا} أَي: تندك الجبال.

{أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ} أَي: من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات، أن يكون منها ما ذكر. والحال أنه: {مَا يَنْبَغِي} أَي: لا يليق ولا يكون {لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا} وذلك لأن اتخاذه الولد، يدل على نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد. والولد أيضا، من جنس والده، والله تعالى لا شبيه له ولا مثل ولا سمي^(٢)

وَقَوْلُهُ: {وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا} أَي: لَا يَصْلُحُ لَهُ، وَلَا يَلِيقُ بِهِ لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا كُفَاءَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ^(٣)

(١) ابن كثير
(٢) تفسير السعدي
(٣)

وقفات تدبرية

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا

هناك من يعلم تلك الآية من أبناء المسلمين ومع ذلك يحتفلون مع الكفار بأعيادهم

أورد إسم الرحمن لقصد إغاية المشركين , لأنهم لا يؤمنون به من بين أسماء الله

لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا

الشدة في كلمة إذا تدل على شدة هذا القول وعظمته

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا

بعض الكلام الذي يتفوه به فئة من البشر خطير وثقيل .. لا تتحمله لا السموات ولا حتى الجبال .. فكل الوجود يرفض حرية الرأي إن كان يمس الله عز وجل

لو أذن الله للكون أن يتصرف بتلقائية .. لأطبق نفسه على أهل الكفر



الدرس الثامن والعشرون

إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ
أَخْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) إِنَّ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦)

إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا أَي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ
الْخَلْقِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ لَا بَدَّ لَهُ أَنْ يَأْتِيَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَقْرًا
بِالْعِبَادِيَّةِ، خَاضِعًا ذَلِيلًا، مَعْلَنًا أَنَّهُ مَمْلُوكٌ لِلَّهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ أَحَدُ الْمَخْلُوقَاتِ
وَلَدًا لَهُ؟! لَقَدْ أَخْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا أَي قَدْ عَلِمَ
اللَّهُ عَدَدَهُمْ مِنْذُ خَلْقِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَعَدَّ أَشْخَاصَهُمْ وَأَحْوَالَهُمْ كُلَّهَا، فَهَمَّ
تَحْتَ سُلْطَانِهِ وَأَمْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ^(١)

لَقَدْ أَخْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا أَي عَدَّ أَنْفُسَهُمْ وَأَيَّامَهُمْ وَأَثَارَهُمْ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ
شَيْءٌ.

وَكَلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) أَي وَحِيدًا لَيْسَ مَعَهُ مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ^(٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَقَدْ أَخْصَاهُمْ) أَي عَلِمَ عَدَدَهُمْ (وَعَدَّهُمْ عَدًّا) تَأْكِيدٌ أَي فَلَا
يَخْفَى عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ. قُلْتُ: وَوَقَعَ لَنَا فِي أَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ الْمُخْصِي أَعْنِي فِي
السُّنَّةِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ خَرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَاشْتَفَقَ هَذَا الْفِعْلُ يَدُلُّ عَلَيْهِ.
وَقَالَ الْأَسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَايِينِي: وَمِنْهَا الْمُخْصِي وَيَخْتَصُّ بِأَنَّهُ لَا
تَشْغَلُهُ الْكَثْرَةُ عَنِ الْعِلْمِ مِثْلَ ضَوْءِ النُّورِ وَاشْتِدَادِ الرِّيحِ وَتَسَاقُطِ الْأُورَاقِ

(١) المنير للزحيلي
(٢) تفسير البغوي

فَيَعْلَمُ عِنْدَ ذَلِكَ أَجْزَاءَ الْحَرَكَاتِ فِي كُلِّ وَرَقَةٍ وَكَيْفَ لَا يَعْلَمُ وَهُوَ الَّذِي يَخْلُقُ وَقَدْ قَالَ: "أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ" وَوَقَعَ فِي تَفْسِيرِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ مَعْنَى "لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا" يُرِيدُ أَقْرَأُوا لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ وَشَهِدُوا لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) أَيِّ وَاحِدًا لَا نَاصِرَ لَهُ وَلَا مَالٍ مَعَهُ لِيَنْفَعَهُ (١)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوَضِّعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوَضِّعُ لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ (٢)

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَغْرِسُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ، وَهِيَ الْأَعْمَالُ الَّتِي تُرْضِي اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، لِمُتَابَعَتِهَا الشَّرِيعَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ -يَغْرِسُ لَهُمْ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ مَوَدَّةً، وَهَذَا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا مَحِيدٌ (٣)

(١) القرطبي
(٢) صحيح مسلم
(٣) ابن كثير

ذُكِرَ لَنَا أَنَّ هَرَمَ بَنَ حَيَّانَ كَانَ يَقُولُ: مَا أَقْبَلَ عَبْدٌ بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ إِلَّا أَقْبَلَ اللَّهُ بِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ، حَتَّى يَرْزُقَهُ مَوَدَّتَهُمْ وَرَحْمَتَهُمْ.
وَقَالَ قَتَادَةُ: وَكَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: مَا مِنْ عَبْدٍ يَعْمَلُ خَيْرًا، أَوْ شَرًّا، إِلَّا كَسَاهُ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، رِذَاءَ عَمَلِهِ
وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: {سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} قَالَ: حُبًّا^(١)

(١) تفسير ابن كثير



وقفات تدبرية

إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا

كل من ارتفع شأنه وعظم قدره .. في النهاية هو يشاركك نفس المستوى

لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا

في زحمة العرصات ومن بين ملايين المخلوقات وفي أعظم الكربات : لك
إسم ورقم ووصف ومصير

وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا

هيء نفسك ليوم يتخلى عنك فيه أهلك وأصحابك وتزول عنك فيه قوتك
وجاهك .. إنه يوم لا يقبل الله فيه الإتيان جماعة

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا

دلت الآية على أن المودة التي للمؤمنين هي من رحمة الله ولهذا ورد إسم
الرحمن

إذا أحببت إنساناً .. وأنت لا تدري ما سبب هذا الحب فاعلم أن الله يحبه

ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه
مودتهم

بقدر إيمانك وعملك الصالح يزرع الله لك وداً في قلوب العالمين



الدرس التاسع والعشرون

فَإِنَّمَا يَسِرَّنَا بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)

وَقَوْلُهُ: {فَإِنَّمَا يَسِرَّنَا} يَعْنِي: الْقُرْآنَ، {بِلِسَانِكَ} أَي: يَا مُحَمَّدُ، وَهُوَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ الْمُبِينُ الْفَصِيحُ الْكَامِلُ، {لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ} أَي: الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ الْمُصَدِّقِينَ لِرَسُولِهِ، {وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} أَي: عَوْجًا عَنِ الْحَقِّ مَائِلِينَ إِلَى الْبَاطِلِ (١)

هذه خاتمة السورة ومقطعها، فكأنه قال: بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر، فإنما أنزلناه بلسانك أي بلغتك وهو اللسان العربي المبين، وسهلناه وفصلناه لِتُبَشِّرَ بِهِ وَتُنذِرَ (٢)

لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ يُبَشِّرُ بِهِ الْمُتَّقِينَ ذَكَرَ فِي مُقَابَلَتِهِ مَنْ هُوَ فِي مُخَالَفَةِ التَّقْوَى أَبْلَغُ وَأَبْلَعُهُمُ الْأَلْدُ الَّذِي يَتَمَسَّكَ بِالْبَاطِلِ وَيُجَادِلُ فِيهِ وَيَتَشَدَّدُ وَهُوَ مَعْنَى لُدًّا، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى خَتَمَ السُّورَةَ بِمَوْعِظَةٍ بَلِيغَةٍ فَقَالَ: وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ لِأَنَّهُمْ إِذَا تَأَمَّلُوا وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا وَالْإِنْتِهَاءِ إِلَى الْمَوْتِ خَافُوا ذَلِكَ وَخَافُوا أَيْضًا سُوءَ الْعَاقِبَةِ فِي الْآخِرَةِ فَكَانُوا فِيهَا إِلَى الْحَذَرِ مِنَ الْمَعَاصِي أَقْرَبَ، ثُمَّ أَكَّدَ تَعَالَى فِي ذَلِكَ فَقَالَ: هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ لِأَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا لَمْ يُحِسَّ مِنْهُمْ أَحَدًا بِرُؤْيَا أَوْ إِدْرَاكِ أَوْ وَجْدَانٍ: وَلَا يَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا وَهُوَ الصَّوْتُ الْخَفِيُّ (٣)

(١) ابن كثير
(٢) الكشاف
(٣) مفاتيح الغيب

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْأَلْدُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْحَقَّ وَيَدَّعِي الْبَاطِلَ. الْحَسَنُ: اللُّدُّ الصَّمُّ عَنِ الْحَقِّ. قَالَ الرَّبِيعُ: صَمُّ آذَانِ الْقُلُوبِ. مُجَاهِدٌ: فُجَّارًا. الضَّحَّاكُ: مجادلين في الباطل. ابن عباس: شدادا في الخُصومة. وَقِيلَ: الظَّالِمُ الَّذِي لَا يَسْتَقِيمُ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ. وَخَصُوا بِالْإِنْذَارِ لِأَنَّ الَّذِي لَا عِنَادَ عِنْدَهُ يَسْهُلُ انْقِيَادُهُ^(١)

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا

وَالْمَعْنَى: أَهْلَكْنَا كَثِيرًا مِنْ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ فَمَا تَرَى مِنْهُمْ أَحَدًا وَلَا تَسْمَعُ لَهُمْ صَوْتًا، وَمَا ذَكَرَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ عَدَمِ رُؤْيَا أَشْخَاصِهِمْ، وَعَدَمِ سَمَاعِ أَصْوَاتِهِمْ ذَكَرَ بَعْضُهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، كَقَوْلِهِ فِي عَادٍ: فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ^(٢)

(١) القرطبي
(٢) أضواء البيان



وقفات تدبرية

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَا بِهِ لِبِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا

دلت على تيسير القرآن

فيها الأمر بقراءة القرآن بين الناس ولهذا قال **بِلِسَانِكَ**

وَكَمَّ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا

فيها الأمر بالنظر في سير الأمم واستلهاهم العبر

هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ستذوب هذه الأوثان وتفنى .. كل شيء هالك
إلا وجهه

عجيبه هذه الدنيا كم عاش فيها من أناس كانوا ملء السمع والبصر
والآن ولا أنهم كانوا هنا



خاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين

أما بعد

فإني أحمد الله على إكمال وإتمام هذا الكتاب , وعلى الرغم من كل الظروف التي كانت تحيط بي من كل جانب مما كانت تجعلني أفكر في عدم تكلمة كتابته , غير أنني تعلمت من السورة أنه لا مستحيل على الله وأن الله قادر على كل شيء وذلك مما تعلمته من قصة نبي الله زكريا وأنه ينبغي على الإنسان ألا يستسلم لليأس , بل عليه أن يستعين بالله عز وجل في جميع أموره , وأسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به وأن يجعل له القبول في الأرض وإني أهدي أجر وثواب هذا العمل لأبي عليه رحمة الله عز وجل , كما أنني أشكر كل من ساعدني وأعانني على كتابته وأسأل الله أن يعطي أمي وزوجتي وأولادي وإخوتي وأخواتي وكل من أحبهم في الله نصيباً من الأجر والثواب على جهدهم معي وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه

محمود بن سالم حسين